

حكي حكاية
قصص قصيرة

2000
1000

حكي حكاية

قصص قصيرة

تأليف: أوغستو روابايطوس
ترجمة: أحمد عسان

مكتبة مدبولي

تذکرہ

قیس قریب

نویسندہ: قیس قریب
مطبع: قیس قریب

کتابخانه قریب

المحتويات

٧	تصدير.. بقلم روبين بار يروساجير.
٢٣	١- نوناتو
٣٥	٢- وفاه
٤٣	٣- مسودة تقرير
٦٩	٤- حكي حكاية
٧٧	٥- القفر
٨١	٦- النفق
٩١	٧- الطائر الطنان
١٢١	٨- جسد مسجى

مقاله پنجم

۱- بررسی کلیات و مفاهیم	۷
۲- روش تحقیق	۱۶
۳- یافته‌ها	۳۶
۴- بحث و نتیجه‌گیری	۴۳
۵- منابع	۶۱
۶- پیوسته‌ها	۶۶
۷- خلاصه	۸۸
۸- فهرست مطالب	۱۱۶

التصدير

بلقم : روبين بار يروساجر

داخل إطار الفن القصصى الأمريكى — اللاتينى الجديد يرتسم تيار يتسم بعلامة التمزق . كُتاب سأسمح لنفسى بتسميتهم بالكتاب ذوى الأحشاء التواصلية ، بسبب الطريقة التى يفرطون بها أمعاءهم من خلال الكلمات . فى ذهنى خوان رولفو ، وخوسيه ماريّا أرجيداس ، وخوان كارلوس أونيتى ، وأوجستو روا باسطوس . فعلى هامش البريق الذى لفت به أوسمة « الرواج » غالبية معاصريهم ، يحقق هؤلاء القصاصون الأربعة عملاً يبدو أن كثافته الحشوية تدمرهم ، تعتصر جوهرهم الحى ، إلى حد التهديد بأن تحملهم إلى صفحة الصمت ، كما يجرى مع أرجيداس ورولفو ، أو ، حين لا يبلغ الأمر هذا الحد ، إلى التفتير الشديد الذى ينتج به أونيتى وروبا سطوس . فكأن اللهب الذى يستنفدهم من الداخل يحرق الكلمات فور أن تولد .

فى المرحلة النهائية من صياغة أنا الأعظم ، يكتب روا با سطوس :
« لقد أوقعنى الكارايى جواسو* فى فخه ، فى أعماق سراديبه ، إننى آخر

سجنائه ، سجين لمائه وثلاثين عاماً ! » (٧٣ / ٤ / ٢٧) . ويؤكد بعدها بوقت قصير : « بعد هذه السنوات الأربع من الأشغال الشاقة تحت عصا الكارايي ، أصبحت خرقه فعلاً ، وليس مجازاً » (١٩٧٤ / ١ / ٣١) . ثم يضيف في رسالة تبالية : « .. الظروف التي أجدني فيها ، كسيراً ومشخناً بالجراح ، من جراء التدمير الروحي والنفسي الذي يسببه طقسان .. » ، للسهر على الموتى ، طقس الكارايي جواسو (غير واقعي لكنّه واقعي) وطقس أبى ، الذي لا يريد أن يموت (واقعي لكنه غير واقعي) .. » (١٩٧٤ / ٥ / ٢) . المقتطفات السابقة من مراسلات أوجستور و اباسطوس تشهد على عذاب التمزق الذي يعنيه فعل الكتابة بالنسبة للمؤلف . فباعتباره سجين وضحية الشخصية ، ليست مجانية تلك العلاقة التي يقيمها في المقطع الأخير لهذا الفعل المضنى ، بالعذاب الذي يسببه له ، بصورة مماثلة ، الصراع ضد الظلام ، الموت الوشيك لأبيه . وكأن الكلمة تتقاضى ثمنها بعملة قاتلة ، في إطار الغائية الحتمية التي يجب طبقاً لها أن يُدفع ثمن الميلاد — ميلاد الكارايي جواسو في هذه الحالة — بموت كائن حبيب . تداخل عميق بين مستويات الوجود ذاته ، مستويات الخيال التي تصبح واقعاً ومستويات الأشياء اليومية التي تتحول إلى كلمات . هكذا يتحول المؤلف إلى رمز للتناقض الممزق الذي يتضمن ، رغم إرادته ، صعود صوت الجماعة العميق الجذور . وبينما يسكن الوحدة التي يشن فيها كل كاتب معركة المفروضة مع ظلال الاشكال ، مع صدى الأصوات ، يصوغ رواباسطوس لغته بالمعدن المطمور في صلصال الجموع . فوحدته وحدة تضامنية ، ترن فيها التيارات الدفينة المغتذية بلغة شعبه .. وبالفعل ، ما أقل المرات التي أتاحت فيها

حالة كلمة مسكونة إلى هذا الحد . ولست أشير إلى الشحنة الدلالية ولا إلى وضوح النبر الذى يميز اللغة المحلية . بل أتحدث عن شيء أشد عمقاً بكثير؛ أتحدث عن النسغ ، عن العصارة ، وليس عن الأوراق . إن الكشافة هى عبق السيميائى الشخصية التى يحقق عن طريقها روبا سطورس تحويل مواد ظرفه التاريخى الراهن ، الذى ينطبع بهذه الطريقة فى المعدن النادر لصوت بوليفونى ، كوفى لأنه أرضى .. ويمكن رصد عملية التحوّل فى إنكسارات الدال مثلما فى الشرايين السما نطقية التى تروى لحم كتابته .

من المعروف أن الفن القصصى الأمريكى — اللاتينى الجديد يقر بالتحطيم اللغوى كإحدى سماته الأساسية . إن تقويض التراكيب العتيقة التى تسبب العتّة يجلب تحرراً تعبيرياً غير مسبوق فى نطاق آداب القارة ، ومع النسيم المنعش للكلمة المستعادة من التعصب المتقعر تتخلل الكتابة قوة متجددة تكف الألفاظ عن كونها « جلفة » أو « سوقية » ، تعبيراً عن أخلاقيات مشكوك فيها ، لتعود فعالة بطاقنها أو بتأثيرها فى سياق سيمى نطقى ، مثلما تفعل الصخرة بصلابتها تحت تأثير الضربة أو بصوتها فى سطح الجسم الذى يطرق .

وأوجستور روبا سطورس واحد من أكثر من أضافوا ، بين كتاب أمريكىك اللاتينية المعاصرين ، إلى تلك التجديدات . والمحجر الذى يستخلص منه مواد معماره اللفظى هو بالتحديد اللغة الحية للشعب . فالباراجواى يشهد موقفاً لغوياً خاصاً فى قارة أمريكىك اللاتينية : هو سريان ثنائى لغوية فى حالة ازدواجية نسبية . فقد بقيت اللغة

الأصلية ، الجوارانية ، ورغم أنها وسيلة التواصل الشائعة في البلاد ، فإنها ، في نفس الوقت ، ضحية العملية الاستعمارية . وبالفعل ، فقد ظلت الجوارانية حبيسة شرط الشفوية ، وعلى هذا النحو فإنها ناقل للمشاعر الشعبية ، خاصة عن طريق الأغنية . بمعنى أنها تنسب إليها وظيفة فولكلورية فقط ، دون أن تتيح لها الوصول إلى شرط اللغة التي تنقل النتاج الثقافي الراقى ، الموسوم في حالة الباراجواي بالخاتم المتميز للكتابة . في هذه الظروف ، فإن العمل الفني لا يمكن الحصول عليه سوى بالاسبانية ، لغة المجموعة السائدة ورمز السيادة الاستعمارية .

ومنذ بدايات عمله الأدبي ، ينشغل روبا سطورس — الذى كتب كشاعر بالجوارانية — بطرح وغرس الثنائية التى تعنى الحضور المتضارب لكلتا اللغتين . ومن موقعه فى الموقف الذى خلقتة العملية الاستعمارية — والذى أصبح الكاتب الباراجواي يتخذه دون وعى — ، يكتب أوجستو روبا سطورس بالاسبانية لكنه ، بالوضوح الذى يمنحه إياه إمتلاكه للغة الأصلية ، أو بالأحرى تملكها له ، يعرف أنه لا يستطيع الفرار من العالم الثقافى للجوارانية ، الذى هو بمثابة المادة المشمية التى يغمس فيها الشخص الباراجواي . هكذا يقول ، فى مقال يتأمل فيه مجموعته القصصية الأولى ، الرعد بين الأغصان ، « إن الرواى أو القصاص المثقف لا يمكنه الاستغناء عن هذه القطعة الثرية والداكنة لواقعنا البيئى والروحى ، لا يمكنه استبعادها دون تخفيض إمكانية طاقته على الإدراك والتعبير. » ويضيف أن الكاتب الباراجواي يجب أن « يضيف (إلى نصوصه) جوّها ، يصهر فيها

معناها ، شعورها الحيوى » (ألكور ، العدد ٧ ، أسونثيون ، III ، ١٩٥٧) مهمة التكامل هذه - التى يصفها بأنها « صعبة بصورة شيطانية » - ستكون شغله الشاغل على طول أعماله كلها ؛ حافزاً ، وتحدياً ، لكنها قبل كل شىء حضور متسلط لا يمكن إنكاره . هكذا ، وعبر دروب ذلك البحث المكثف ، المؤرق ، يمكن تمييز النبرة الاصلية التى يتمتع بها صوت رواباسطوس ، الذى تتبدى فيه الإنعطافات العميقة للغة زاخرة بالصور ، قريبة من الأشياء ، وكأنها تبتكرها بقدر ماتسميها . لغة مجازية بشحنها من الروائح ، والأصوات المفاجئة ، والهسهسات بين الأغصان . لغة غاصة بالصمت الذى يطيل المدلولات من خلال الجذور المضفورة للتلميحات ، والحذف ، والالتفاف ، والاختصارات ، والتضمينات . لغة ذات « تعبيرات خاوية » تستدعى المشاعر لتبلغ المعنى . لغة ذات أصوات حلقيه ومقطعة ، مثل الحفقات التى تجعلها الوقفة بين الحروف الصوتية تفجّر ، وتمزق بسخونة العبارة ' الجوارانية . وباختصار ، فإن كتابة تحمل طابع الطبقات الجيولوجية للغة الأصلية هى منحنى يضى من أشد التجسّدات بديهية حتى أشد المصادر رقياً وتقظيراً للتكامل اللغوى .

ومن المثير للأهتمام أن نرى ، ولو بطريقة موجزة ، هذا المسار .

يندرج الرعد بين الأغصان ، نقطة البدء فى فنه القصصى ، ضمن طريقة إقحام كلمات فى النص . وهو بالفعل يستخدم وسيلة إقحام ألفاظ أو تعبيرات من اللغة الأصلية داخل الكتابة الاسبانية للقصة . والهدف هو خلق جوّ ما هو جوارانى من خلال نظام ما هو « مدسوس » أو

«الجسم الغريب» ، الذى يقتضى الترجمة فى ذيل الصفحة أو المفردات فى نهاية الكتاب . وواعياً بحدود أو مضايقات الطريقة المستخدمة ، يلجأ المؤلف فى كتابه الثانى ، رواية **إبن الانسان** ، إلى وسيلة أخرى ، تعمق الوسيلة السابقة ، ومن خلال تبنى الطريق المجازى ، توسّع أدواته التعبيرية وتؤكد لغته الأدبية فتختفى عملياً الاقحامات أو التطعيم بالكلمات والترجمات المترتبة عليها والتى تسبب الضيق . ويتم «تقليص» التعبير الجوارانى شعرياً فى نطاق السياق ، وبذلك يتم تحقيق فعالية أكبر لبلوغ هدف «صهر معناه ، شعورة الحيوى» ، ليس باستخدام اللفظ بل هالة الصوت ، نفس اللغة .

وتأتى مجموعات القصص التالية — خمس فى مجموعها بين الروایتين — لتؤكد وتوسّع الطريقة التى يتم من خلالها ادماج عناصر اللغة الأصلية . خلسةً فى النثر القصصى للمؤلف . بهذه الطريقة تتشقق العبارة الاسبانية ، ومن خلال الشقوق التى تتفتح تظهر ، عبر الطبقات الدفنية ، الداكنة ، نتف ، وأبخرة ، وأحجار ، حرقها لهب اللغة العميقة ، مدفوعة من الداخل حتى شفاه الفوهات البركانية التى لا تنضب . وجدير بالتقدير لحظة التكتيف فى الشذرات التى تظهر ، بإعتبارها قصصاً ، فى الجزء الأول من وفاة (والتى تشكل ، مع أجزاء أخرى متضمنة فى كتب تالية ، جزءاً من الرواية التى أوشكت على الانتهاء ، حياة مضادة) .

وتجد العملية التى وصفناها حتى الآن ذروتها فى البوليفونية الرائعة لرواية **أنا الأعظم** . وفى هذا الكتاب طريقتان أكثر تكراراً أو وضوحاً

تتيحان الاستفادة من العناصر النحوية الجوارنية . الأولى تعمل في الخط الذى يجد مثلاً له بطريقة خاصة في الشذرات المذكورة في حياة مضادة . أى الذى يستفيد من مصادر اللغة الشعبية من إنحناءات ، وتعبيرات وحماقات ؛ من مجازية ، واختصارات ، وترخيم ، وتحويرات ، وإسهابات ، وحيودات ، والتواءات بواسطتها يحوّل الشعب المفاهيم إلى صور ، والعقل إلى شعر . وتحقق هذه الطريقة ، الشديدة الفعالية على المستوى الحسى — الشعورى ، بصورة متميزة من خلال تدخلات شخصيات من بيئة شعبية ، يعد الكاتب باتينيو مثلها الأكبر في الرواية .

أما الطريقة الثانية فأكثر تعقيداً ، وتشكل الخاصية الأساسية للغة الدكتاتور الأعظم فرنثيا . وهى تستمد من إعادة تهذيب ذهنية أساسها العميق ، هو التركيبة الجوارانية : وضعها كلغة متعددة التركيب وتلاصقية ، والذى يسمح لها — بمرونة فائقة — بتركيب الوحدات السيمانطيقية من خلال عمل عنصر محورى يتحور بالإضافة المركبة للسوابق وأواللواحق . ويستفيد المؤلف بوضوح من هذه الخاصية لتحقيق « التشويه الساخر ، الذى يحوّر العلاقة بين الدال والمدلول » ، وذلك بهدف « الإضافة إلى التكوين الصوتى ، أو بالأحرى البوليفونى ، للنص » ، فى المقام الأول ؛ وفى المقام الثانى ، بهدف « تقريب الكتابة من شكل لغة الحديث ، التى هى سياق المقولة الروائية : فالنص حوارى ، بفرض أنه مغمور فى نسق من التناقضات والتعارضات . هذه الحركة الجدلية ، المكوّنة من تركيب لمكملات تنفى بعضها وفى نفس الوقت تتصل ببعضها لتتكامل فى معنى ثان مركب ، تستهدف إستنقاذ

الكلمة الحية ، الكلمة الشفهية ، من الثبات الجشئ للكتابة !!» ويختتم المؤلف مبيناً خطة ذلك النسيج الذى يتيح له تحقيق التأثيرات المقصودة : «تنتج التغيرات عن طريق الإضافة ، والحذف والإقحام ؛ عن طريق التراكم ، والتلاصق . وقد إتّبع فى ذلك نسق التغيرات أوالتحولات فى اللغة الجوارانية ، الذى بمقتضاه تشكل كلمتان أو أكثر كلمة جديدة ، محوّرة بصورة جذرية العلاقة بين الدال والمدلول ومحدّدة واقعاً جديداً» . بهذه الطريقة استطاع روا باسطوس سبك معدن لغة خاصة ، تبعث الجوارانية حرارة الانصار فى سبيكتها العميقة . صوت يرن ، فى وجود العنصر الأساسى للغة الاصلية ، بنغمات متعددة وبمساحة رنين كونى .

وتشهد طرق نقل الواقع ، على مستوى المضمون ، مسارات مماثلة لتلك التى يقطعها الدال لتحقيق حضور واقع لغوى فى علامات منظومة لغوية مغايرة . وعلى أية حال ، فإنها تتضمن نفس عملية الالتئام .

فن خلال التئامات جسم الكتابة نفسه يمكن التعرف على الدوام الذى لايفسد للكائن الجماعى . إن الجروح الدامية فى جلد الكلمة هى العلامات التى تلفت الانتباه إلى المادة التى لايمكن تدميرها والتى صُنعت منها قدرتها على الأمل ، وإرادتها على المقاومة . وكل كتاب ، كل صفحة من أعمال روا باسطوس تعيد تركيب تقلبات ذلك المسار العسير . وفنه القصصى يغتذى بلحظات منقوشة فى الذاكرة التاريخية . لكن هنا أيضاً يتم تحويل تفاصيل الظرف المباشر . فلا يتعلق الأمر بالوقائع المرجعية بل بتحويل المرجع التاريخى إلى مجاز ، بإضفاء الطابع

الأسطوري على الشخصيات ، والطابع الرمزي على المواقف . ويمكن لبعض الأمثلة أن تساعدنا على فهم نسق ذلك النقل ، في جوانبه المتعددة .

تتخلل أعمال روا باسطوس أشكال الحضور والرموز الأسطورية . التي تقوم مقام المحاور التي تعيدنا إلى منظومة القيم الجماعية . وفي التقاطع بين تلك الدعامات السيمانطيقية تسود تلك التي تحمل الطابع المسيحي . أوبالأحرى ، فإن تلك ، بسبب وضوحها أسهل في تبيينها من الأساطير الأصلية ، وفق العملية التي لاحظناها بالنسبة للغة . فقد فرض النظام الاستعماري قيمه بغيره أكبر بقدر ما يتعلق الأمر بالإحلال الديني ، وهو الدافع الذي يقوم بدور الذريعة والمبرر للغزو والاستعمار . من هنا فإن الاساطير الجوارانية تقوم بعملها باعتبارها نماذج أكثر منها حضوراً . نماذج لسلوك الكتابة ولنسيج المدلولات التي تخفيها . هيكل عظمى أوإطار يحفظ البنية ، نادراً مايلحظ بنظرة عابرة ، و يتطلب إدراكه على الدوام تقريرياً قراءة مزدوجة . هكذا ، في إبن الانسان ، تنتمي شبكة الرموز الظاهرة إلى الميثولوجيا المسيحية . لكن النفس العميق للمقاومة الجماعية ، و« البعث » الدائم الذي يجري بين المهمة المنوطة بإحدى الشخصيات وتلك التي يتولاها من يواصل العمل ، كلاهما مستمدان من مصادر أصلية indigena ، ومعلنان في إحدى الحكمتين — الثانية بصورة ذات مغزى — ، والتي تنقل مقطعاً من نشيد موتى الجواراني . وهذا ، أيضاً ، هو الحال مع نفس الهالة الأصلية*

التي «تخطم» أرثوذكسية العقيدة المسيحية من خلال التبجيل الذي يزجيه الشعب لتمثال «مسيح» إيتاييه «الأبرص»، ذلك الطقس «الهمجي» الذي ينحوفيه كل الدافع الديني إلى تحويل الإنسان إلى كائن يحمل سمات الخلود، التي تجعله شبيهاً بالآلهة.

المنفى واقع يمثل شوكة في جنب أوجستورواباسطوس، الذي اضطرم لمغادرة الباراجواي في ١٩٤٧، عام حرب أهلية دامية. لكن الأمر لا يتعلق بفعل فردي؛ إذ تندرج حالته في جملة تيار المهجرة الذي يبعد عن البلاد منذ ذلك التاريخ كمية ضخمة من الباراجوايين، يشكلون اليوم في مجموعهم ثلث العدد الإجمالي للسكان. وباعتبارة كاتباً يأخذ على عاتقه قدر جماعته، يتشبع أدبه بطابع ذلك النزيف الأليم. فتشير قصص عديدة إلى المنفى. لكن، ومرة أخرى، لا تتحقق هذه الشهادة فقط، أو بصورة متميزة، على مستوى الموضوع الواضح. فالمنفى يصبح حافزاً في الحجاب الذي يكتسى به، في الكتابة، وجه الوطن وفي حضور جو وشخصيات الواقع الجديد. لكن مهما اختلفت الظروف فإنه يمثل أشكالاً للموقف الذي يتخذ الغواص الذي يبعد لكي يحصل على أفضل دفعة تتيح له بلوغ مدى أبعد نحو قاع الماء عند قلب المجرى. على هذا النحو تجد تجربة «قصص الميناء» تفسيراً لها في علاقتها بالانحياز الكلي والعميق لرواية أنا الأعظم، وهي العمل الذي يتلو زمنياً الحكايات المذكورة.

ومرة أخرى، لا يتناول هذا العمل الواقع الباراجواي بوصفه قصاً أو وصفاً للأحداث التي تحدد التغير العارض. لا هذه الرواية ولا الرواية

الأولى ، **إبن الانسان** . ورغم ذلك ، فكلتاهما تستخدمان المادة التاريخية بطريقة متميزة ، وهذا هو السبب الذى يحتم علينا رؤية كيفية اختزال هذه المادة إلى نص روائى ، وعملية التخيّل التى يَشِدّ من خلالها عالم قصصى يتمتع بتماسك داخلى شديد .

ففى **إبن الانسان** ، وهى لوحة جدارية متقطعة تضم قرناً من الحياة الجماعية ، يجرى تحويل مجازى للمرجع التاريخي ، بالنسبة للاستمرارية الخلاصية *mesianica* التى يقوم بها أشخاص مختلفون يتتابعون ، دون إنتقال ، فى تولّى المهمة المحزنة . ويتم تقديم التطور التاريخي — الزمنى بتغيير مضمون المهمة : فن مستوى أولى أسطورى — دينى (مزيج من الأورفية مع خلاصية مسيحية وطقس جوارانى) يتم العبور إلى مهمة تقدمية ذات إطار سياسى ووعى متزايد — وليس من المستغرب أن يكون الفصل الذى يختتم الفعل القصصى هو « مهمة » ، وهى مخاطرة يقوم بها أحد الأبطال فى إطار حرب التشاكو (١٩٣٢ — ١٩٣٥) ، التى عاشها شعب الباراجواى باعتبارها لحظة جهد مؤحد وبطولة جماعية ، تتجاوز قضايا خفية معينة للنزاع مشكوك فى أساسها — بترولى — ، لم تكن واضحة بالنسبة للمحاربين . ومثل هذا الفصل ، كيريتو (وهو تحوير جوارانى يشاربه إلى المسيح *Cristo*) ، هو آخر وجه تكتسبه الشخصية الجماعية الخلاصية فى الرواية ، ويتميز بالمهمة التى يجب إنجازها ، وليس بسمات فردية جسمانية أو سيكولوجية وحتى الموت يوصف بنفس الطريقة الوظيفية المتجاوزة للفردية . والأبطال المتتابعون يبلغونه عفواً ، بالطبيعية التى تتحقق بها

مرحلة أخرى من المهمة المحررة، وهذه سمة أخرى للمهمة ذات الأبعاد الجماعية تضيف على العمل وحدة. وأخيراً، هناك مستوى آخر بارز في الرواية، هو مستوى العلاقة بين الزمن التاريخي والمحتوى الايديولوجي. وجددير بالذكر أن الايديولوجيا المتضمنة في العمل — والتي تنقل بشكل ما اللاوعى الجماعى — تدور حول، وتغذى، وتدعم، مفهوم الخلاص — التمرد، وتأتى في لحظة تاريخية تشهد فيها الباراجواى حقبة من النضال والأمل: حقبة مقاتلى العصابات لأعوام ١٩٥٩ — ١٩٦٠، وهى فترة كتابة ونشر *إبن الانسان* و «المصادفة»، في تقديرى، أكثر من موحية.

أما أنا الأعظم فأكثر إنغماساً في التاريخ، بسبب المادة الأساسية التى تستمد منها. لكنها، وهى مشبعة بها، تستخدمها وتحولها من خلال عملية دائمة لإضغاء الطابع الأسطورى أو للترميز. فالأسطورة التاريخية للدكتور فرنشيا، الشديدة الذبوع في التقاليد الباراجواية، هى المؤشر الذى يحدد مسار هذه العملية. ويمثل الانتشار الشعبى لهذه الشخصية التاريخية نقطة الانطلاق التى ينوع التخييل بدءاً منها طرق المعانى القصصية المتعددة، المترابكة والمتقاطعة. ومن بين القراءات العديدة الممكنة لهذا الكتاب المتعدد المعانى، أود أن أبرز تلك التى ترتبط بالمعطيات والمعلومات المرجعية، العديدة بدرجة لانجدها سوى في قلة قليلة من الأعمال القصصية. وأعتقد أن هذه الوفرة ليست من قبيل المصادفة. إذ تستجيب لحاجة ملحة لإعادة بناء الحاضر المتدهور على أساس معنى معين للماضى فى لحظة تخلق العمل نجد زمن الأمل

مدفوناً تماماً تحت الصخرة الثقيلة للقمع الدكتاتورى . أنها اللحظة التى يستحضر فيها النص شبح دكتاتورية من القرن الماضى ، ذات طابع مضاد ومعاكس للدكتاتورية الحالية . بمعنى أنها لا تقبل الفساد ، وكفئة ، تميزت بوصفها مدافعة ضارية ونزيهة عن السيادة والتكامل القوميين . وسأكتفى بتناول النقطة الأخيرة . فهنا تثير الإشارة التاريخية قراءة ثانية . وتجدر الإشارة إلى وفرة المقاطع التى يتعارض فيها إتساق الدكتاتور فرنشياً وحسه السياسى ، ورغبته فى الحفاظ على إستقلال البلاد ، مع مناورات الإلحاق للاتحاد الارچنتينى ولإمبراطورية البرازيل ، مع التأكيد على تلك الأخيرة . وبالرجوع مرة أخرى الى علاقة الزمن التاريخي بالكتابة الروائية ، ننتبه إلى أن كتابه الرواية تتصادف مع الفترة التى تتجسد فيها التبعية للبرازيل من خلال معاهدة إيتاييو (١٩٧٣) ، التى تقر إقامة السد الذى يحمل نفس الاسم . وحين ينشر الكتاب ، بعدها بعام ، تصبح أولى عواقب إنكار السيادة واضحة فعلاً ، خصوصاً فى إحتلال ملاك الأراضى والمستوطنين البرازيليين لكل المنطقة الحدودية ، وهى الاقليم الذى لايجرى الحديث فيه سوى بالبرتغالية ولا تتداول فيه عمله غير الكروزيرو . وعلاوة على التشديد على الدفاع عن استقلال وسيادة الباراجواى فى مواجهة البرازيل والذى يمارسه الأعظم فرنشياً ، تزرخ الرواية بالمقاطع التى ، بفضل التلاعبات اللفظية العديدة ، تجعل الإشارة الى المشكلة الملتهبة للتغلغل البرازيلى حاضرة حضوراً معذباً . فالدكتاتور الأعظم ، الصوت القصصى الأول ، يتولى كل السلطات اللفظية بهدف الانقاذ العام أمام التهديد الخطير للتلاشى ككيان مستقل والذى يشغل على المجتمع الباراجواي .

والكاتب ، ضمير شعبه اليقظ ، يتولى صوت من لا صوت لهم من خلال عمل قصصى ذى تماسك بالغ يجرى فيه إضفاء الطابع الرمزي على شخصية بالغة الدلالة وحية فى التقاليد الاجتماعية . وأكرر ، أن القراءة المقترحة هى إحدى القراءات العديدة الممكنة ، وعلى أية حال ، فإنها تلك التى تتمشى مع التركيز المذكور على نقل الواقع التاريخي .

والاختيار الذى قام به المؤلف يبين بوضوح مسار بحث لا يكل ، حاولت رسم ملامحه عبر خطوط سريعة أو مواقف عينية فى مجموعة الأنتاج النصي . ووجود « صراع حتى الفجر » * ، قصته الأولى — والأخيرة هنا — يفيد فى البرهنة على أن اتجاه ذلك المساريأتى من بعيد . ففيها ، بالفعل ، نماذج أعماله التالية ، جنين لغته الأدبية ، وكذلك جنين موضوعاته الرئيسية — الكارايى جواسو — ، وأيضاً مفهومه فى معالجة الواقع بالنسبة لإنقاله إلى مستوى الكتابة (الصبى يعقوب أو مانورا — الناصرى) . هذا المسعى الذى يحمل من المعطيات العيانية إلى إنكسارها المركب . « كان علينا أن نتخيل ونعيد اختراع ماتخيلة وإخترعه .. » ، هكذا يقول فى « حكى حكاية » ، أحد النصوص المحورية لفهم « جماليات » روبا سطوس . « أسد ليوناردو دافنشى الممتلىء بالسوسونات » أو « ملمس الخشب فى طرف الإصبع » ؛ أبسط الأحاسيس وأكثر المعطيات الثقافية تفرداً ، ملصومة فى خاتم الجملة التى تكتمل ب « أشكال الصمت المشحونة تلك » ، التى يشير إليها فى نفس القصة .

اما « درس الكتابة » * ، النص المتضمن فى هذه المجموعة ، فيمثل

فى المجموعة الاصلية التى يجرى تقديمها — م .

عيننة أستاذية للارتجال ، للتوازن الكامل بين الكتابة بوصفها ذريعة نظرية وبوصفها ممارسة مكتملة . « تقديم الكتابة باعتبارها تقديماً » . وبقرآته ننبتة إلى المدي الذي يمكن أن يقود إليه طريق سعيه المؤرق . هنا يقول القاص : « الكتابة هي إنتزاع الكلمة من ذات المرء . شحن تلك الكلمة التي تنتزع من المرء بكل ما للمرء حتى تصير ما للآخر . ما هو غريب عنه تماماً » . وهي الصيغة التي تبلور عملية الكتابة لديه .

الآن وقد تحدثت مراراً عن الواقع وعن نقله في الأدب ، وهو التفاعل الجدلي الرئيسي في أعمال رواباسطوس ، فإن من العدل أن نعيد إلى هذا النوع من الكتابة المعنى ، والمدي الذي يتيح له المؤلف من خلال كلمات إحدى الشخصيات : « الواقع بالنسبة لي هو ما يتبقى عندما يكون كل الواقع قد إختفى ، عندما تكون قد إحتقرت ذكرى العادة ، الغابة التي تمنعنا من رؤية الشجرة . بإمكاننا فقط أن نشير إليه بصورة غامضة ، أو نحلمه ، أو نتخيله » . إنه الواقع ، دون شك ، لكن ليس ثباته الاستاتيكي كما في لوحة فوتوغرافية . فكلمة القصاص تعيد إليه الدنيا مية ، والحياة ، بالاشارة إليه ، والحلم به ، وتخيله . أنها حركة تمضي من الشرط الدلالي إلى الدلالة الأدبية ، وبفضل توسط الصورة على وجه الخصوص ، تميل كتابة رواباسطوس إلى خلط الشيء بالصوت الذي يسميه ، إلى الاحتفاظ في كلمة نهر ، مثلاً ، بصدى التيار ، وإنتعاش الماء ، ورائحة الأسماك .

ككاتب للمآزق ، عرف رواباسطوس كيف يبرزو يوفق بين أشد المستويات اختلافاً — الواقع ، الحلم ، الأسطورة ، التخيل — في كتابة

تميزه كأحد أكثر الأصوات أصالة وقوة في الفن القصصي الأمريكي
اللاتيني في أيامنا .

روبن بار يرو ساجير



نوناتو

حين تقولين لى أننى لا أستطيع تذكر أشياء بعيدة إلى هذا الحد ، وإن أحداً يتمتع بسلامة عقله لا يمكنه أن يفعل ذلك ، وأننى قد كبرت لأمضى مضيئاً الوقت فى تخاريف طفل ، فإننى أصمت . من الخارج فقط . ولأننى لأجد من أتحدث معه عن هذه الأشياء ، مادمت أنت كذلك لا تريدين الانصات إلى ، فإننى أظل أتحدث مع نفسى ، إلى الداخل . يمكننى أن أبدد كلماتى ؛ فلماذا أبدد صمتى . أحتضن الحائط ، ألصق فى بالطلاء وأحس بها تتحرك فى النفس بطعم الجير ، بطعم صراصير صغيرة شقراء . أمضغها قليلاً وأتركها تصعد وهى تخرج . فتصعد وتظل مشتبكه فى أعشاش العنكبوت فى السقف .

وأنت : لا تظل تغمغم هناك ، لا تكن عنيداً . بسبب رأسك الفارغ ستدمر حياتك . مثلما فعل أبوك مع الجيتار . لكنه على الأقل كان رجلاً كاملاً . أما أنت فلا تعرف سوى أن تهمس بالحماقات ، أو تدقّ طول النهار ذلك الطبل اللعين ، لتحطمنى . إبدأ مرة واحدة فى عمل شىء نافع ، فلم تولد لتكون طبالا ولا حتى مغنياً ، فلنرأى شىء ولدت .

nonato : اسم علم ، لكنه يعنى كذلك من لم يولد طبيعياً بل بعملية قيصرية . ومجازاً نقال بمعنى من لم يولد بعد أو بمعنى الشىء غير الموجود — م .

أصمت أنا فقط حتى لا أضايقك . حتى لا أرى لون الحزن الذئبي
يكبر في عينيك . لون يشبه لون نباتات الطرق المهكة تلك ، ذات
الأوراق المتدلية ، المكسوة بالتراب ، بالعُصاف . إنك بأكملك تشبهين
تلك النباتات ، تحت ثوب الحداد الحائل اللون .

أظل صامتاً حتى لا أزعجك ، ناظراً إلى السلسلة الطويلة التي تفرع
شفتيك والتي تجعلني حزينا أنا أيضاً لأنني أدرك أنها تخرج من عذاب
جاف وحائل بعض الشيء مثل ثوبك ، مثل صوتك . فوق كل شيء
حن تتذكر بين تاييتيتا * . حينئذ تصمتين يهزمك الصمت الذي تحمليه
داخلك ، وأنتهز أنا الفرصة فأعود لمخاطبتك ، تشجعني طريقتك في
النظر التي تمنحني جسارة تلك النظرات التي أشعر فيها بأني أكبر
وأضج فجأة حتى أحتل حجم ، وهيئة تاييتا ، الذي أراه منعكساً بوضوح
في عينيك . بعقلي أحاول أن أنفخ حنجرتي إلى أقصى مدى ، حتى أن
الصوت يخرج مني محاكياً صوته .

أتعجل بالحديث عن ذكريات ما قبل الميلاد تلك ، ليس منها
الكثير ، لكنني أجهد لجعلها تدوم ، وذلك حتى لا تعودى فتتضايقني
بسرعة . حتى أظل كبيراً في عينيك . أجهد لأقرب منك تلك
الذكريات حتى ترينها أنت أيضاً كما أراها أنا ، شبيهة بطيور ضخمة
حاضنة ترقد على الذكريات الأخرى الأصغر لما بعد . حين أبقى وحيداً
معها ، وأراها تصحو في الظلام ، تتابني وحشة هائلة ؛ ليس خوفاً ،
أتفهميني ؛ مجرد وحدة كبيرة ، أكبر مما ينبغي . من تحت الفراش أخرج

البرطمان المستلىء بديدان الوهج . أسوأ ، لأننى عندئذ أرى كذلك الظلمة تتفتح بجواف مخضرة حول الزجاج . تتدافع الذكريات كأنها جائعة وتبدأ فى أكل الديدان حتى تترك البرطمان خاوياً ؛ ولا أعود أستطيع النوم منتظراً أن تأكلنى أنا أيضاً ، بنقرات مناقيرها .

حين تمضين إلى القرية بالحمار لبيع الجبن وجرار اللبن ، أرقد فى الفناء ، على ظهري ، لأنظر إلى الشمس حتى أصبح أعمى تماماً ؛ لكننى رغم ذلك أرى الجنود يدخلون ؛ أراهم يتجادلون معك تحت شجرة الأرومو* ، وأنا منكش فى داخلك ، لا أدرى إلى أين أذهب .

لكن إذا أنصت لى ، فالأمر يختلف ؛ إذ أزرع رأسى فيما هو سعيد ، مهما بلغ من حزن تلك الذكريات ، وهى حزينة فعلاً . حسناً ، ليس لدى من أحدثه عن تلك الأمور ؛ فالصبية من سنى سرعان ماتعلموا الضحك منى ، السخرية منى فى جماعات بصيحات بغاوات الأخاديد . نوناتو جاء ، نوناتو راح ؛ والأكبر منهم شريرون بنوع من الشر لأفهمه لأنه يبدو مستعاراً . والبساتين تمطرني بالأحجار والبرتقالات المتعطشة حين أذهب إلى الجبل بحشاً عن اليمام ، دون أن أستطيع الوصول ، وأنت نفسك ضربتنى لأننى عدت عارياً بريشات دجاج ملصوقة فى الحروق التى يسببها لبن شجرة الكورو بيكاي* الصمغى . والآن لم أعد أجرو على عبور قناة المجارى ، منذ عدت بريشات ظهري

aromo : شجرة أمريكية من فصيلة السنط ، تنمو حتى تبلغ ١٧ متراً ، ذات أعضاء مشوكة وأزهار صفراء ذكية الرائحة ، وثمارها قرون صلبة ومنحنية - م .

Curypicay شجرة قرنية اسمها العلمى Commanis خشبها من نوع جيد ، يستخرج منها الصمغ ويستخدم لحاؤها فى صبغ الجلود .

دامية . أقصى ما أبلغه حتى القنطرة لأسمع مرور طنين القطار، رأسى تحت الماء، أتنفس خلال قشة، محتضناً الوتد، لأشعر فى أسناني باصطكاك الضوضاء . أو أحبس نفسى فى كهف الأخدود مع الطبل . الوحيد الذى ينصت إلى هو أوسيو، بينما يחדش و يأكل بأظافرة الفطر من الاحجار لكنه أصم أبكم ولا أدرى هل يفهمنى حين ينصت إلى بعينه المعصتين، ورأسه المرتجف الذى يقول لا طول الوقت، حتى ولو ورقة شجر تسقط .

لكن هذه الأشياء لا تهم بالنسبة لى . فما يهم هو ذكريات ما قبل الميلاد تلك، والتي لا تخرج حتى ولو سهواً من الذاكرة، لفرط إلحاحها . والآن فإن ماتعبرنيه ذكريات، ليس كذلك بالنسبة لى؛ فما حدث لك مرة واحدة، يعود ليحدث لى المرة تلو المرة، بنفس الطريقة، دون توقف .

كل صباح يدخل الجنود المنزل بحثاً عن تاييتا، الذى يمضى مختبئاً فى الجبل .. يصيحون قائلين البيت بكعوب بنادقهم ومخطمين الدواليب وحتى الصناديق الصغيرة التى لا يمكن أن يختبئ فيها سوى فأر .

لكن فى هذه الأثناء ترن من الفناء شتيمة، يعقبها على الفور غناء بولكا مشاكسة: نفس صوت أبى، لكنه مقلّد، وكأن الشجاعة والغضب قد وضعا فى حنجرتة ماسورة من الصفيح . يسقط الصوت من أعلى وكأن تاييتا مشنوق من شجرة . يصوب الجنود بنادقهم ويهمون بإطلاق النار على الصوت الذى يقهقه الآن بين الأغصان . فتذهبين

وتقولين لهم بفرح ، كأنه خجل لكشف سر : ليس سوى بانتشيتو .
لا تؤذوا المسكين بحق الرب .

يُنزلونه نخساً بالسيوف ، ويجرحونه بالركلات إلى منتصف الفناء ،
وهناك تثير الطلقات المكتومة لفصيل الاعداد زوبعة من الريشات
الخضراء ، والملطخة بالأحمر : تنف موت البغاء ، التي نراها أنت وأنا
تسقط ببطء شديد ، وكأنها معلقة في دخان البارود وفي وهج القيط
المتأرجح .

لكن الجنود الآن يدفعونك أنت ، مجررين أحذيتهم الضخمة ببلادة
وحشية ؛ يجذبونك من ذراعيك ؛ يلقونك على الأرض ؛ يرفعون ثوبك
ويمزقونه إرباً . تصرخين ، تتسلوين وتصرخين ؛ تعضين ، وترفسين ،
وتصرخين ؛ لن تكفى عن الصراخ حتى بعد أن تموتى . تقلصات قيئك
تعصرنى من كل جانب ، تمسك بأصغر أجزاءى ، حتى آخر حدود
عدمى ، من حيث لم يكن يجب أن أخرج أبداً . يُسمع ركض حصان ،
ربما كان حصان تاييتا ؛ يصل أناس أكثر ؛ ضحيج حوافر ، وأسلحة ،
وأصوات أجشة ؛ لا يرى شىء فى عتمة الشمس . أبى مختبئ فى الجبل ؛
ولن يحى أبداً .

لا يروقك ذكر هذه الأشياء فتأمريننى بالسكوت قائلة لى أن أكف
عن إدعاء التفاهات . لاتتعبى من تكرار أن رأسى الفارغ سيدمر حياتى
بهلوسات أحمق ، بهلوسات طفل مفطوم قبل الأوان . من قة ضآلتك ،
نخافتك ، تصرخين قى : كن رجلاً مرة واحدة ، فأنا أيضاً يمكن أن
أحتاج إليك ولا أدرى كيف ستتدبر عندئذ ، العجل اليتيم لا يفيد

لا الأم الغريبة ولا اللبن المهدى . أذهب فأخرج البقرات من الحظيرة ، بدل التكاسل هنا .

لكننى لا أذهب . فى صمت أنظر إليك منهمكة فى الأركان ، منحنية بين الأثاث ، مختفية للحظات خلف السحابة الصغيرة التى تتصاعد من كنس المكنسة ؛ وبعدها بقليل فى الفناء ، فى المزرعة ، تتحركين متزايدة فى الضالة حتى لا تعودى سوى نسمة بين أوراق أشجار الموز المحترقة . عندها فقط أسحب الطبل وأمضى إلى الكهف ، لأحبس نفسى فى الطنين المزدوج للطبل وللتيار . من ثقب صغير فى الكهف يدخل شعاع شمس ليضع فى الظلام شجرة جوز مقلوبة على رأسها ، وموجبات النهر تلمع منكفئة على وجهها ، مكان السماء ، دون أن تنكسب . تماماً مثلما كنت محمولاً بداخلك وكنت أنظر بعينيك ؛ يرقه وحيدة فى خلية النحل تسمع تساقط قطرات الشهد من الناحية الأخرى .

وحين توشك العاصفة أن تهب لايبقى أمامى سوى لعق زجاج النافذة حتى أشعر فى جسدى كله بطعم المطر ، بطعم الكبريت المشتعل للبروق . وحين تنفجر السحب الملبدة تحت هراوات الرعود ، أكف عن اللعق وأتكور فوق الفروة دون أن أتمكن من الإمساك بتلك الايقاعات الخارجية ، التى تنجدل مجنونة وتقلص أصابعى ، ويذى ، ومعدتى ، حتى أبدأ فى تقيؤ ذنبى ، ذنبى الهائل ، المولاس الداكن «لأننا الخاطيء» التى تجعليننى أصليها كل ليلة والتى تصعد إلى رأسى وتجعلنى أهذى وأبصق على الحائط إسم الرب المقدس عبثاً .

لو كنت تريدين الإنصات إلى ، لمضى كل شىء على نحو أفضل .
لأن ما يذيبنى شوقاً ويشفينى هو الحديث عن أشياء ما قبل الميلاد تلك ؛
ليس لأجعلك تعانين ، صدقيني ؛ بل مجرد أن نصيح أكثر قرباً ؛ إنها
تجعلنى أحس بأننى أعود لأدخل فى جوفك حتى أصبح ملتفاً تماماً
بعتمتك ، مكسواً بسخونة عذابك ، شاعراً فى رأسى باهتزاز خطواتك التى
تهدئنى بنفس قلقك ، عبر تلك الرحلة اللانهائية فى الجبال بحثاً عن
تايتيتا . إنظري هل أتذكر .

النقطة التى نبدأ عندها فى الافتراق دائماً هى موته ؛ البالغ الحمق ،
كما تزعمين ؛ موت يعد نفيّاً لكل ما كانت حياته : مليئة بالحياة ،
بالشجاعة ، بضربات الحظ ، ودائماً ما يعرف أكثر من الآخرين ؛ أكثر
خفة ومرحاً ، أكثر جسارة ، دائماً أكثر . عملاق . تبدو أكذوبة أنه
استطاع أن يقتل نفسه عندما سقط عن الحصان البنى الذى يحمله من
إحدى سهراته الموسيقية وصدّم رأسه فى شجرة القرفة ، عند باب البيت
بالضبط . كذلك تحطم الصدمة الجيتار ، الذى يوقظنا معلناً المصيبة .
ولانجد سوى كومة رجل أصبح متضائلاً ، جباناً ، ملقى فى القمامة .

دون أن يكون لدى أب آخر أتناقش معه فى هذه الأمور ، فإننى
أسمع ماتريدين أن تحكية لى عن الميت ، عن ذلك الميت الذى لن
يكف أبداً عن الموت داخلك . وبالطبع : إذا كان على أن أراه
بعينيك ، فإننى أجده ذلك الشخص الذى يجعل روحك تنمو . لكننى
أراه على نحو آخر ، وهذا أشد ما يضايقك . حين نبلغ هذا الحد ، فسرعان
ما تنطلق اللطمة من يديك وترن فى رأسى ، ويرن رأسى فى الحائط ،

بذلك الطنين الذى يجعلنى أرتجف حتى أخض قدمى . آه ، خسارة
ألا أستطيع أن أحب ماتريدين ، والاّ أستطيع جعلك تفهمين ما أريد .
أحك النمل الجائع الذى خلفته لى الضربة ، تحت فروة رأسى ، وأظل
ناظراً إليك ؛ أظن أنك ربما ، لفرط حبك لزوجك ، تريدين أن تمنحني
ميتة مثل ميتته ، لتكونى عادلة مع الإثنين . هذا ما أظنه ، وربما يوافقنا
ذلك نحن الثلاثة . من يدرى . أمسك رأسى منتظراً تلك الضربة التى
تسوى بيننا ؛ وإذا لم تعودى لضربى ، فإننى انا نفسى أنطح برأسى
الجدار ، والأشجار ، مثل عز ، حتى أسقط فاقد الوعى ، لجرد أن أبين
لك أننا متفقان .

أعرف أنك محقة فى ضربى ، من أجل تلك الذكريات التى تؤلمك ،
لكنك لست محقة اذا ضربتنى لأننى أستطيع تذكر أشياء بعيدة إلى هذا
الحد . ربما كان ذنبى وندمى ضعيفا الذاكره تماماً . لا أدرى . ما أدريه
هو أن على أن أقفز دائماً فى نفس الموضع ، محاصراً من كل جانب ،
راكلاً هذه السماء المبتلة ، التى تدفعنى من قدمى ؛ مصارعاً حتى لا
أسقط إلى الأرض مثل عجينة ؛ يتيماً قبل أن أولد ، أكره الحياة قبل أن
أعرفها .

لهذا فإن تعبى يزداد أكثر من تعبك . فأنا ، من قبل أن أولد ، عجوز
أكثر منك ، أكثر من أبى الميت ، وأكثر بكثير من أعجز عجائز القرية .
لماذا لا تصدقيننى حين أقول لك أننى أتذكر جيداً جداً تلك
الذكريات .

وأنت : كف عن الإصرار على ما لا تدري . لقد سمعنى أتحدث عن تلك الأشياء ، ومن ذلك تستنتج أنك رأيها تحدث . لا يمكن لأحد أن يتذكر سوى ما حدث له شخصياً . وذلك فقط منذ أن يستطيع تحكيم عقله .

بكل إحترام أقول لك أن ذلك بالنسبة لى ليس تذكراً بل نسياناً . أنسى لا أتذكر تلك الأشياء بالعقل ؛ وأنت نفسك تقولين أننى شبه مسلوب العقل . إننى أحس بتلك الأشياء فى سرتى ؛ حتى لو أغلقت عينى فإننى أراها : إنها موجودة .

و حين أشرع فى الحديث عن تاييتا تغضبين وتلطميننى : لا تكن لجوياً .. لا يمكنك أن تفكر فيه بسوء . واضح أنك لم تعرفه وكيف كنت ستعرفه إذا كنت بالكاد قد أكملت ستة أشهر فى بطنى حين مات . كان رجلاً كاملاً ومع آتته الموسيقية يكاد يكون رجلين . حين يغنى كان يكبر ليصبح بحجم شجرة القرفة ، وكان الناس يجلسون فى ظله ويفكرون أن الحياة ليست بالغة السوء . كان يعرف كيف يضع إصبعه ويخرج من جديد تلك الأشياء الأبعد دائماً من متناول الفقراء . حسرة من الرب أنه لم يترك فيك بذرتة . بالتأكيد كان يعرف أن مصيره ينتهى عنده تماماً . فقبل موته بقليل جعلنى أقسم أن أدفن معه جيتاره . وقد حققت رغبته الأخيرة .

هذا أيضاً أتذكره جيداً جداً ، أقوله ليس لمجرد رفع معنوياتك بقدر ما هو الحقيقة الخالصة . أراك ليلة السهر على الميت منهمكة فى وضع الجيتار فى صندوق الميت ؛ ببطء فى البداية ، برقة بالغة ، وتحاولين إيجاد

موضع له ، تغمرين الإثنين بدموعك ، بهرائى أرملة ، تربتين عليهما كثيراً كأنما لتترقى قلبها ، محاولة جعلها يفهمانك ، جاهدة أن تجعلى من الاثنين كيئناً واحداً . لكن الميت ضخم ، و يبدو أنه يزداد ضخامة كل لحظة ، ولا يريد أن يفسح مكاناً ؛ ربما كان الجيتار نفسه ، الذى يعادل فى عرقه وعناده الميت ، هو الذى يتحایل لئلا يدخل فى الصندوق . تنادين زوجك بأحب أسمائه ، تذكرينه بكل فضائله ، وبكل ماتمتعما به سوياً ، و بقدر حبه لجيتاره ؛ تتوسلين إليه ، ترفعين ذراعاً من ذراعيه ، ساقاً ، ترفعين رأسه . ولا فائدة . الميت يتكور فى الداخل متضايقاً ، متنكراً لرغبته الأخيرة ؛ لم يعد يريد مزيداً من الموسيقى بل السكون والسلام ؛ الجيتار يقطع ويحتج فى الخارج بخشبه المكسور ، بأوتاره المشعته فى مقبضها ، غاضباً من ذلك الرجل الذى يرفضه ، الذى يريد موته له وحده وفى نهاية محاولات عديدة بلا طائل ، تتضايقين أنت أيضاً ؛ وما لم تبلغيه بالحسنى ، تبلغينه بالسيئة ؛ تنتهين بتحطيم الجيتار ، ضاربة إياه فى الأرض ؛ تلتقطين النشف وتحشرينها حشراً فى الصندوق بقبضتيك . لم تعد تُسمع لامراثيك ولا الضربات ؛ يضحك الناس صارخين ، كأنهم سيكون مفهقين . هناك نقطة لا يفرق فيها الضحك عن السكاء فى شىء ؛ تلك النقطة التى ينتزعون فيها اليأس هاذياً من داخل أجسامهم مفرغينها بذلك من ضوضائها السيئة .

وفيت بوعذك . وأنا لا أعرف سوى أن ميتاً ، يسمونه أبى ، قد دخل ليشاركنى مكاناً لا يسعنا نحن الإثنين — وأعرف أنه آحلاً أو عاجلاً سينتهى بأن يطردنى منه . لهذا أتحمل ضرباتك ، تبواضع شديد ، ودون

إحتجاج ؛ والتهديدات التى تلقينها فى وجهى كل لحظة . أعرف أن
إلتزامك الأكبر الآن تجاهه ؛ فلأنه الأضعف الآن ، والأشد إحتياجاً ،
يجب عليك أن ترعيه أكثر منى . وعلى أن أضع وزناً مقابلاً فى الميزان
الذى يجعلك تتعذبين بالمؤثر المزدوج المسمّرفيك والذى يبين تفاوتاً
بالغاً ؛ مثل ميزان الدون لوكاس ، حين ترسليننى لأشتري المّون ؛ فى
صحنٍ قطعة الرصاص السوداء ؛ وفى الآخر ، حفنة العشب أو الخبز
الأسمر التى ترجح على الفور . أود أن أريحك من عبّ يشترك نصفين
للأشياء ؛ عبّ أحال حياتك إلى عذاب .

غداً سأمضى إلى القنطرة لأسمع مرور طنين القطار ، وأنا غاطس
جيداً تحت الماء ؛ سألصق رأسى بالوتد كالمعتاد ، لكننى لن أضع القشة
فى فمى ؛ سأظل أنصت جازاً على أسناني حتى يُلصق ضرس الضوضاء
عظامى بالضوضاء الأخرى التى تطبل داخلى دون توقف .



وفاة

سمعتك تذكرين منذ لحظة إسم تشيبي بوليغار. فهل عرفته؟ —
سألت المرأة في القطار المختلط *.

— عامل تلغراف مانورا؟ إيه، كيف لا، إذا كنت أصنع له حتى
ثيابه !

قلت لنفسي، العجوز الثرثرة تكذب، متذكراً أن عامل التلغراف
كان يمضي عارياً طول الوقت تقريراً، على الأقل خلال الأعوام
الأخيرة من حياته، حينما عرفناه.

— طويل، أسمر، بطيء، بأقدام طائر. دائماً يرتدى الدثار، شتاءً
وصيفاً. وبالليل، إذا ظهر القمر، كان يضع فوق رأسه سمبريرو كبيراً
وعلاوة على ذلك، يغطي نفسه بشمسية امرأة زياذة في الحيطه. كان
يخرج للتجول مفزعاً الناس. كيف كان يمكن ألا أعرفه !
— غمغمت البائعة

لا؛ عارضتها في ذهني، لم يكن يخرج من داره إلا نادراً. عارياً،
وأورامه يكسوها العرق مع نحافته، ظل حبيساً ينقش خشب صندوقه،

قطار الركاب والبضائع — م.

على ضوء شمعة . من بعيد كانت تُسمع في الليل ضربات القدوم
والإزميل فوق جذع الشجرة . أذكر أننا كنا نقول في القرية حين نسمع
ذلك النقر المكتوم للطائر الثَّقار ، ها قد عاد تشبى يدق التلغراف .
قالت لى خالتنا إمرنثيانا ، التى كانت مشهورة بمعرفتها للعلاج
بالأعشاب :

— هيا إحمل إليه الدواء . وقل له أن يأتى لحظة ليصلح لى هذا ،
فبقرات الجار الخطافة تدخل في حديقة الخضروات منذ الصباح .

— خالتى تبلغك أن تذهب لحظة لتصلح لها السور .

— لا أستطيع . ألا ترى القمر؟

— الوقت نهار .

— إذا خرج من قشرته ، فدائماً ما ينظر إلى المرء ، بالليل والنهار ، ولو
كان لا يظهر .

— يقول أنه لا يستطيع المجئ ، يا خالة . فأنت تعرفين جيداً أن
جسده يمتلىء بالقروح إذا خرج والقمر مكتمل . سيأتى الاسبوع
القادم ، إذا شاء الرب والسيدة العذراء ، وسيترك لك السور كأنه جديد
كذلك سيصلح لك طاقة السيد المسيح قديس الصبر .

تنفس المرأة يترد أذنى . يعود الهمس بين فحيح القطار المختلط :

— مات تشبى حين جاء الجنود عام الفيضان الكبير . مات خلال
إطلاق النار .

أقول — لم يمت برصاصة .

— قيل أنه مات من الرعب من إطلاق النار وقيل بل برصاصة طائشة . لكن ذلك لم يكن الحقيقة ؛ معك حق . مات عامل التلغراف لأنه كان يجب أن يموت ، لا أكثر . كان قد ظل ينتظر موته وقتاً طويلاً . كان يجب أن يكون قد مات في إنتفاضة عام ١٢ . لكنك لا يمكن أن تتذكر ذلك . فلم تكن قد ولدت بعد .

لأنت ولا أنا كنا قد خرجنا من البيضة ، كما يقال . عرفنا تشيبي عجوزاً ، مثلما عرفنا المعلم كريستالدو . مضيت أنت من القرية قبلي بكثير ، لكنك قد لا تزالين تذكرين كم كان المعلم وتشيبي متشابهين ، رغم إختلافاتها . كنا نرى في أحدهما إنعكاساً للآخر ، وكأنهما يشكلان شخصاً واحداً . كأنها الظفر في اللحم . الأول نحيف ، غير مكتمل ، شديد البياض . والثاني طويل ، ضخم ، شديد السواد . وحين لم يعد تشيبي يستطيع الحركة ، كان المعلم يذهب إلى منزله ليعاونه في عمله . كان التابوت قد إنتهى منذ وقت طويل ، لكن الإثنين دائماً ما يجدان شيئاً يتطلب التعديل أو التحسين . كان التابوت يشبه قارباً ، قارب المعلم كريستالدو . وربما كان أفضل ؛ يفوقه نوعية ، وتحملأ ، ومظهرأ . أفضل ما يناسب الصعود في النهر حتى منابعه ، كما أراد المعلم ، الذي لم يستطع سوى التجديف في البحيرة ؛ فقد كان قاربه العجوز ينفذ الماء من كل جانب .

والحروف التي كانت في أطراف تابوت تشيبي ، حفرها المعلم حرفاً حرفاً ، بسن السكين . عمل سجين . إستغرق عدداً آخر من الاعوام ..

ليس ثمة سوى البداية وما قبل البداية ... ماذا كان يعنى ذلك ؟
رسالة ؟ إهداء ؟ نفاق عجوزين مخرفين .

صوت المرأة يروح ويجيء في العتمة ؛ لاتدعنى أتشبث بالتفكير في
الحلم :

— قيل أن الجنود الذين إحتلوا القرية ، خلال ثورة عام ١٢ ،
أجبروا تشيبي على إبراق نبأ كاذب . خدعة لتعطيل المتمردين الذين
كانوا قد إستولوا على قطار عسكري في مدنية إنكارناثيون ، وجذبهم إلى
كمين في مانورا .

النبأ الكاذب الوحيد الذى نشره تشيبي بعدها بكثير ، ليس كعامل
تلغراف ، بل كمجرد ناقل أقاويل ، من متسكعى المحطة ، كان نبأ
وصول من سيحل محل المعلم . وتذكرين أن كل التلاميذ ، والمعلم على
رأس الطابور ، ذهبنا لإستقباله حاملين الأعلام المثلثة الألوان ومنشدين
النشيد الوطنى الذى تدربنا عليه جيداً . لكنه لم يصل لافى ذلك اليوم
ولافى أى يوم آخر .

— يقولون أن عامل التلغراف رفض . ولم يكن فى مانورا من يستطيع
تشغيل جهاز التلغراف سواه . جربوا رشوته بالنقود . فرفض تشيبي .
وعدوه بترقيته إلى منصب رئيس المحطة . فرفض وضعوه ، وكأنهم
سيعمدونه ، أمام فضيل الإعدام . لافائدة . لم يفت فى شجاعته شئ .
يقولون أن تشيبي ظل يهز رأسه :

هل تذكرين أن عامل التلغراف كان يتلثم بعض الشيء؟ في المدرسة كنا نطلق عليه الدعابات. تلثم، بسبب فقدان الذاكرة، وليس لمانع آخر. فقد ذاكرته وصوته. لم تذكر البائعة ذلك. كانت تحكى حكاية سمعتها.

— لم يفد موقفه في شيء. فما رفض فعله لتجنب مجزرة مروعة فعله آخر. الطيور على أشكائها تقع. استطاع الجنود تنفيذ الخدعة. فقد أطلقوا بأقصى سرعة قاطرة مجملة بالقنابل ضد قطار المتمردين، وفجروه في منتصف الطريق. سيكون الوقت قد تأخر إذا أرجأت مأسأحكيه لك عن الموت الذى حدث!

الآن تخلط العجوز الثرثارة كل شيء، خشية أن تبرد الذكريات؛ وربما تتمنى أن توقف الحياة التى تخرج من فيها هى الأخرى وهى تحكى الوفاة الممتدة لتشيبى بوليفار. كان يجب أن يموت تلك الليلة...، فحمد الهمس.

— ومن قال لك أنه لم يميت تلك الليلة؟

— لم يستطع النوم بعدها. لم ينم يوماً واحداً منذ ذلك الحين دامت عشية موته عشرين عاماً.

— لم تكن عشرين عاماً. على كل حال، لا يمكن القول أنها كانت عشرين عاماً.

ماذا؟

كنت على وشك أن اشتمها — ألا تعتقدين ، ياسيدتى ، أنك لكى تحكى ذلك بصدق يجب أن تدوم عبارتك نفس الزمن بالضبط ، وأنه ، على هذا النحو ، هناك شىء يزيد أو ينقص ؟ لم الجدل ؛ فى نهاية المطاف ، لا يمكن تسوية ما حدث بالكلمات .

قلت — من يدرى كم تدوم تلك الأشياء .

فقلت — فم كل واحد هو معياره ، حين مات تشيبى ..

حين مات تشيبى فكأن المعلم قد فقد ظله . بدأت الشمس تضربه بلا شفقة من كل جانب ؛ كيف يمكن التعبير عن ذلك ، بدأ يُرى فى قلب الضوء ؛ موحشاً . كأنه بدءاً من تلك اللحظة قد بقى فى القرية لمجرد أن يقوم بمهمة فك خيط العدم الأسود ، الذى حاكه الإثنان بينهما ، بصبر مقدس ، ودون كلل ، طوال أكثر من نصف قرن . أعتقد ذلك الآن . وربما لم يكن الأمر كذلك ؛ وربما تخدعنى الذاكرة أنا الآخر .

— حين مات تشيبى — كررت العجوز التى تراقب سرحاتى — لم يكن المهاجمون قد نسفوا المحطة بعد .

— لم تنسف المحطة فى مانورابل فى سابوكاى ، قبلها بعشرين عاماً .

— لا يهم ، لكن فى مانورا كانت قد مضت ثلاثة أيام والقوات تقتتل من أجل الجسر . كان يمكن للنزاع أن يستمر فترة مماثلة وبدأ الجسد الذى غاض منه الدم يفوح بعد برهة قصيرة من موته . فالأعوام العشرين التى قضاه دون نوم دمرته فجأة حين بدأ فى أول حلم لم يكن

ليستيقظ منه . أول جرعة من الأبدية . أعتقد أنه عدم التعود ... —
غاض صوت العجوز في بصقة .

وحين عاد :

— كان تشيبي بوليغار هو المسيحى الوحيد فى القرية الذى كان
لديه صندوقه وهو حى — قالت ذاكرة ما إعتقدت أنها ستحذفه . فى
المرات التى حملت له فيها أدوية الأعشاب لعلاج بثور « اللهب —
البارد » للقمر ، كان يمد يده تحت الفراش ، حيث يحتفظ بالتابوت ،
الذى كان يقوم له مقام الكرار ، ويخرج قمع سكر ملئ بالنمل :

— خذ . تقديراً لخدمتك .

— ولماذا يحتفظ بذلك هناك ؟

— مجرد عدم ثقة . أكيد أنه مات عجوزاً . ومجرداً من الثقة مازال يحيا .

— لكن كيف صادفت كل هذه الشجاعة لتفعل ما فعلت تلك المرة ؟

— متى ، يا فتى ؟

— المرة التى كانوا سيقتلونك فيها .

— لم تكن شجاعة . كان رعباً .

— لكنك رفضت .

— لا ، لم أستطيع الكلام . لم أقل شيئاً . كان فى حنجرتى حجر .

— قلت لهم لا .

— ليس لهم ، بل لرعبى ، لخوفى . لم أرد أن أموت ...

قالت البائعة ، في ذلك التابوت دفناه . لكن ليس في المقبرة . فلم
تستطع الجنازة اجتياز حزام النيران الذي أحاط بالقريّة . إضطررنا
لدفنه في إسطنبول . ورغم الطلقات التي كانت تصفر فوق رؤسنا . لم
يتخلف أحد عن جنازة ذلك الميت الذي كان كثيرون ، بين أكبرنا
سناً ، يدينون له بالحياة .



مسودة تقرير

بدأت قوافل الحجاج في الوصول قبل الإحتفالات بعدة أيام .
أفقرهم أول من وصلوا وهم آخر من ينصرفون . هي العادة ، كما قيل
لى . ولا بد أنها حقيقية ، فهؤلاء الكسالى تكفيهم أية ذريعة ليظلوا
مكتوفى الأيدي ينشون الذباب و يفكرون فى أى شىء خلاف العمل .
يجعلون الفراغ يقتلهم ثم يندبون حظهم .

كما أن كل هذا الدم الراكد فى الخمول والذى يتعطن كمياه
مستنقع ، يولد فى رؤوسهم دعايات سمجة تتفجر بعدها فى أعمال
لا يعود من الممكن إصلاحها .

ما زالوا هناك ، بعد إنقضاء الليلة الكبيرة * ، مستلقين فى سكرة
القيظ منتظرين ، ما لم ينته بهم القداس الختامى بأن يذيعهم فى مolas
داكن ، أن يخلطهم بالتراب و يلاشيمهم فى النهاية فى الدخان القائم الذى
يتصاعد من الوادى بين تموجات القيط . فليسوا سوى حبوب مبدورة فى
حويلة الطيور .

من نافذة دار المحكمة رأيتهم يهبطون التل عبر الطريق الذى يمه
الأمر يكيون الشماليون . صفوف لا تنتهى ، كالنمل تماماً ، وعلى

أكتشفهم أدواتهم ، التى تراءت لى على البعد مثل التتوعات المرئية
لإيمانهم ، مثل حذبات عوزهم . ولا يعنى ذلك أننا ننكر عليهم حقوقهم ،
مثل ذلك الحق فى الأمل فى رحمة الرب .

حملت النساء فى موجات من الهدير كورال النشيد :

إنه شع .. ب .. ك أيتها العذراء الطاا .. هـ .. ره ..

يمنحك ... حبه وإيماا .. ن .. ه ...

إمنحيه من عندك ... سلاماً وهناءا

فى جنتك ... جنة عدن كا كوبيـ .. ي .. ه ...

السىء فى الأمر أنهم عندما صبوا فى الميدان الصغير، أمكن رؤية
بعض الجيتارات مائلة على ظهور الرجال ؛ والأواني ، والربطات ،
وأكياس الزاد تتأرجح فوق رؤوس النساء ، وتحت إبطهم البطيخ
والشمام المسروقين من المزارع التى مروا بها .

التراب ، والحرارة ، والجوع ، والعطش ؛ لا يثيّنهم شىء بل يبدوحتى
أن ذلك هو ما يمنحهم المزيد من الشجاعة والرضا : أن يضحوا قليلا
تقرباً من القديسة الراعية التى مازالت هناك ، فى الكنيسة الفطساء ،
وكأنها سراب فوق بحر الشموع الذى تسبح فيه قاعدتها ، تمتد إلى الحجاج
يديها الخشبيتين الملونتين ، وعينيها النديتين ، ومعطفها الأزرق المطرز
بالذهب .

ليس بينهم من يسلّم ، حين يراها فى ثرائها وبهائها ، رغم إنقضاء
عبيدها ، ورغم كل ماجرى ، بأنها لن تمنحه شيئاً ، ولوجاء ذلك فى

اللحظة الأخيرة . يأملون بالتأكيد في أن تنتهى طقوس الاسترضاء ، التى مبالوا يتولونها لحسابهم الخاص ، بأن تهدئها وتلين قلبها حتى تتساقط عليهم من كم معطفها معجزة كاكوبيه فوق حداث رغبات الفقراء ، لتفرغها على الأقل حتى العام المقبل .

أما فى دار المحكمة فكان ماتساقط علينا هو العمل . مخالفات ، حوادث نشل ، حوادث إعتصاب ؛ ألف لون ولون من الخطيئة الطبيعية والاحترافية ، لأن الضراعات قد مضت متشابكة مع الشرور ، إلى درجة يصعب عندها القول أين تنتهى أيها وتبدأ الأخرى .

مع سعى الحجاج وصلت افواج البائعين المتجولين ، وبائعى اليانصيب . وأصحاب الديكة ، والمراجيح ، ولاعبى السيرك ، والمهربين ، وكل البلاط الملازم لمعجزات العذراء . متفرقين بين الزحام أو ملتجئين إلى خيامهم القماشية ، يواصلون إلقاء الطعم إلى أصحاب النذور بصرخات عارية ، مجردينهم مما لم يعودوا يملكون . يتساءل المرء كيف يُسمح لهم بدخول قرية السيدة العذراء صاحبة المعجزات . ولا بد أن السبب هو أن كل ما فى الحياة يمضى مختلطاً : الطيب وما هو قادر بعض الشيء ؛ المقدس وما هو شيطانى بعض الشيء .

ومن حسن الحظ لم يصل أولئك المحرضون وقطاع الطرق السياسيون الذين شكلوا جماعات حرب عصابات ويمضون متخفين فى الجبال ، لا لشيء سوى معاداة الحكومة وتعكير صفو البلاد الآن وقد بلغت أخيراً عهداً من الرخاء ، والسلام ، والتقدم .

هذا أحد المجالات التى حافظت فيها على يقظة دائمة (والحق أن ذلك ما زال يقلقنى كثيراً ، لأنهم يسقطون دون سابق إنذار ، ويظهرون شجاعتهم بإطلاق الرصاص ، ثم يتحولون إلى دخان كما جاءوا . رغم ما تقول البيانات .) لذلك أمرت بتطويق الكنيسة وأمرت ألا يسمحوا سوى بمرور ما نحى الهبات فى صفوف يسهل التحكم فيها حتى الردهة حيث الصناديق وأكشاك بيع الشموع وصور القديسين .

حوادث النشل والمخالفات الصغيرة ليست شيئاً ذا بال . فلاأمر الخطير هو حوادث الموت الثلاث التى جرت خلال الأحداث والتى تدخل ضمن المجال العام . وإننى لأحاول الالتزام بدقة بتعليماتك ، ياسيدى الكولونيل .

(فور دخولى مكتبه حين استدعانى ليلغنى بتعيينى بادرنى قائلاً « إذهب وافرض النظام حيث لم تعرف تلك الرؤوس الفارغة كيف تقوم بواجبها . لما كانوا قد أمروا قسيس الأبرشية بالذهاب إلى الأسقفية ولم يبق فى كاكوبيه سوى نائب القس ، فإن إحتفالات القديسة الراعية تلك ستنتهى إلى .. » وأمتنع هنا ، إحتراماً للعذراء ، عن إثبات الكلمة التى استخدمها . كان الكولونيل عصبياً وحانقاً ؛ أنشب فى سحنته ، سحنة الطائر الأعرج الخلبى ، وهو يتنفس بصعوبة نتيجة عسر التنفس . « لقد عينتك مفتشاً بسلطات مطلقة فاذهب وتول دورك فوراً » ، أصر وهو يخبرنى فى صدرى بطرف السوط « وأول مهماتك أن تغلق لى

بالقفل وتختم بالشمع الأحمر صناديق الهبات لا بد ان يكون بها الملايين والملايين نقداً وعيناً . ضعها لى تحت تصرف المفوضيه ، على مسئوليتك » ثم حاول تخفيف هبته الآمرة بغمزة ، كاشفاً عن أسنانه فى إبتسامة زائفة . « حين ينتهى تلقى الهبات ، إبعث إالى هنا بكل تلك الصناديق . وسأقوم بنفسى بتقديم تقرير إلى العدالة كما ينبغى . ولن أتهاون مع أية جرائم ، أو سرقات ، أو انحرافات من أى نوع فى نطاق سلطتى » . قال ذلك وإنفعاله يتزايد من جديد . ولا بد أننى غمغمت بشىء ، بإعتراض خفيض على التفاصيل الإجرائية . لأنه قال وهو يخزنى بالسوط من جديد « إنك تذهب مثلاً لى . تذهب بوصفك مندوباً عن مندوب الحكومة » . ثم أضاف مشجعاً « اذهب ولا تقلق ، فسوف أمنحك القوات اللازمة لتفرض لى النظام » .

وهأنذا هنا ، غارق فى المحاضر ، أتقاتل مع الناس ، وأصارع أحياء وأمواتاً لا يريدون البوح بأسرارهم ، ويلوذون ببراعة متهمكة ، لا يجدى معهم أى تهديد . أود فقط أن انتهى مرة واحدة من ذلك كله وأتركه على خير وجه ، لكن الأمر يزداد تعقيداً ولا أدرى متى سينتهى . ولست بحاجة إلى أن أوكد لك ، ياسيدى الكولونيل أنه رغم الصعوبات ، فإن صديقك وخادمك القديم هذا سيحاول تنفيذ أوامرك حتى أقصى حدود طاقة البشر . ولو مجرد ألا يخون ثقتك ولكى يرد بطريقة ما بعض جمالك ولفتاتك . لكننى لن أكون مخلصاً تماماً ما لم أصرح أيضاً بأن هذه المهمة شديدة العسر بالنسبة لى ؛ فليس من المستساغ أن يعرق الإنسان نتيجة

الشر الأنساني ، صدقنى . خصوصاً حين تتشابه فى الأحداث التى
تحققها مصالح وشخصيات جديدة بكل تقديرنا .

فور دخولى القرية إنتابنى هاجس بأن الأمر لن يكون سهلاً فعبّر
منحدر التل كانت المرأة تهبط جاملةً صليياً فى ضخامة صليب الجلجلة .
كانت تتقدم ببطء كمن تسير أثناء النوم فى وضوح النهار ، وتنتزع بجهد
قدميها من الأسفلت الذى تصهره الشمس فوق حصى الطريق الذى
يجرى إنشاؤه . شعرها الأسود ، الذى يخطه الغبار بالشيب ، يتهدل على
ظهرها حتى عجزها . ومن الخلف ، كان خيالها ، وهى محنية تحت ثقل
الصليب فى البريق الداكن ، يصدم لأول وهلة بتشابهه المقلق بالصليب
المقدس . كان الشوب الممزق يلتصق بجسدها فى صلصال ضارب إلى
الحمرة ، خصوصاً على الجانب الذى تحمل عليه الصليب ، كاشفاً عن
الكدمات والرضوض فى الكتف والعنق ، والثديين الضخمين العاريين
اللذين يترجرجان تحت المِزَق . كانت تتوقف لحظة قصيرة بين برهة
وأخرى ، وعيناها مثبتتان دوماً أمامها ، لتلتقط أنفاسها وتمسح برفقها
العرق الدامى عن سحنها ، لكن كذلك كما لو كانت تلك الوقفات
تشكّل جزءاً من مسيرتها المحتلجة ، وقفاتٍ فى طريق الصليب الغريب
لذلك المسيح الأثنى .

كان شيئاً يقارب تدنيس المقدسات ، بلا شك ، لكن الناس كانت
تتوقف لتنظر إليها ؛ وخصوصاً الرجال الذين يملكون فى العربات
الفارغة ويخففون من سرعتهم ليفحصوا عن كذب صاحبة النذر التى تهبط

الطريق كالسائمة ، معانقة الصليب ، ومخلّفة وراءها ذلك التجويف
اللامع المتعرج فى القطران الساخن .

إزاء إختناق المرور، بدأت العربات المدرعة العشر التى تتبع سيارة
المفوضية تدوى بزماراتها . وسرعان ما تفرق الزحام وحتى قوافل السابلة
أفسحت لنا الطريق وانتقلت إلى الجانبين ، بين أكوام التراب
والحصى . كانت هى الوحيدة التى ظلت غير عابثة فى نهر الطريق ،
كأنها لا تسمع شيئاً ، وكأن شيئاً لا يعينها ، وعيناها الخائبتان ، الناظرتان
إلى الداخل ، مستغرقتان فى كابوس أو رؤيا إيمانها ، التى كانت قادرة
على إستقطابها بكليتها فى ذلك النوع من نشوة امرأة مجنونة أو غشيها النور .
هذا فقط هو ما يمكن أن يفسّر إنحراف مسيرتها فى لحظات نحو جانب
الطريق ، أو تقدمها ، فى المنحنىات ، فى خط مستقيم وكأنها فى الحقيقة
لا ترى الطريق أوروباً لأنها تحس فى النشوة التى تتملكها أنها تسير مرتفعة
عن الأرض شبراً ، فى ذلك النوع من الخفة اللاهوتية للمنومين
مغناطيسياً .

عادت الزمارات تحترق الهواء الساخن ، لكن لم يبد عليها أنها
أدركت ؛ فقد واصلت تقدمها ببساطة ، مخنية ، متصلبة ، تحت
الصليب ، تستعقبها الخطوط اللامعة للذباب الذى يحوم حولها . الوقفة
المعتادة ، كل بضع خطوات ، و يقترب شخص ليسقيها من زمزميته ، أو
يصحح لها إنحراف مسيرتها ، ومرة أخرى يواصل طرف الصليب خطه
المتعرج بين علامتى الحُف فوق الأسفلت .

تزايد ضجيج الزمارات كان مئتا رجل ، بعتادهم الحربى الكامل ، ينسلقون فى الأوعية المعدنية لعربات الويللى ، لكنهم لا يستطيعون المرور لأن تلك المرأة تسد الطريق مثل رؤيا عبثية . وتزاحم الناس ليروا ، مرتقين الأكوام . لابد أن الصراع بين الثائبة والطابور المدرع كان مشهداً جذاباً بالنسبة لهم .

(لم أحس بأن هناك ما يُسلى على الإطلاق ؛ ليس فقط بسبب مضايقات التأخير ، والحرارة ، ونفاذ الصبر ، وما الى ذلك ، بل كذلك ، وأساساً ، بسبب ذلك الشعور بالنفور التهمى الذى أحسست بأنه يتساقط علينا من سلبية الجمع ، فى موجات محسوسة أكثر من موجات هواء القرن الذى نحنقنا : من تلك السلبية التى لم تفعل سوى النظر والهمهمة ، فى انتظار شىء ، والتى كست سحناتهم بتعبير من الحمق المتأصل .)

أمرت السائق أن يُسكت الزمارة وأخرجت ذراعى مكرراً لبقية الطابور الأمر ، الذى يبدو أنه شمل الزحام أيضاً . وفى السكون الذى تلى ، لم يكن يُسمع سوى بلاف .. بلاف ، حفيف الخف الذى يقتلع فردة إثر أخرى ، بلا عجلة ؛ ناهيك عن طنين الذباب ، وذلك الأزيز المتصل ، فى نغمة أكثر إنخفاضاً ، والذى أدركت بعدها أنه كان نتيجة احتكاك عمود الصليب .

(عند ذلك ، لدى رؤية حركة الاستدارات السمينية ، والفخذين البارزين تحت الرداء الممزق المنقوع فى العرق الذى يحدد خطوطها وكأنها مرسومة بالقلم الرصاص ، بدأت أشعر فى فم

المعدة بشيء كالعطش مازال يعاودنى بعض الأحيان ، يحفنى ويملاً فى بلعاب ساخن . كانت أول مرة أشعر فيها بشيء كهذا ، وخشيت أن تعاودنى النوبة ، التى عادةً ماتندرنى بأعراض من نوع آخر . لم أرد أن أصبح أضحوكة أمام كل هؤلاء الناس . وحين إنتهت وجدت أظافرى مغروسة فى كسوة المقعد وركبتى مبتلتان تماماً .

أشرت للسائق بإيماءة أن يتقدم عبر الجانب الذى مازال غير مسفلت من الطريق . وهكذا مررنا ، نكاد نحتك بها ونحن نتقافز فوق المطبات التى لم تُردم بعد . وخلال هذه القفزات ، بدت المرأة وكأنها هى التى تستهقر وتتقدم فى قفزات مع الصليب ؛ قفزات تضاعف من الرجرجات الداعرة لهداياها ، وفخذيها ، وتهدل شعرها البالغ الطول حتى يغطى وجهها كله ببقعه كبيرة فاحمة .

كان على أن أراها مرة أخرى قبل أن أراها ميتة . (فى الحقيقة ، عاودت رؤيتها مرات عديدة ، لكن هذه أشياء تخصنى ولا شأن لأحد بها وحتى الآن ، مازال تذكرها يثير لى وللحظات ، هذا الغشيان المفاجيء والذى أحس به يندلع كالبرق ، من أسفل البطن حتى الحلق ، مصحوباً بتنميل له لذعة تشبه لذعة الإبر الساخن ، ويجعلنى أبصق لعاباً كثيفاً بشكل بركاً حول مائدتى بينما لم تكذب البرك الأخرى تحف .) ولعدة أيام ، كان على أن أنسى تلك المرأة لأنسى لى وصولى وجدت فى إنتظارى التحقيق المرهق المتعلق بأفعال العمدة والقاضى .

في هذه الأثناء ، وكأن الأحداث ذاتها شاءت أن تختبر صبري وتعقلي ، إضطررت للإنشغال بمخالفات صغيرة أخرى ، تكاد تكون مضحكة لقلّة شأنها ، ورغم ذلك إنتهت بالتسبب في حادث الموت الثالث في إحتفال الراعية هذا ، الغنى بفصاحه وقلاقله .

ففى نفس مساء وصولي طلب رؤيتي أحد الباعة المتجولين ، وهو تركى* يبيع الصابون ، والتوافه ، وتلك الأشياء النايلون التى تستخدمها النساء هذه الأيام . ألح كثيراً فى التحدث معى شخصياً ، حتى جعلته يدخل آخر الأمر ، وأنا أشك أن فى الأمر حيلة ما . لم يكن الأمر يتعدى الإبلاغ عن سرقة الأفعى التى يستخدمها بمثابة طعم لاصطياد زبائنه . قلت له بضيق « إبحث عن غيرها » فشرح السورى حجتة بقوله « هذه الأفعى كانت مدربة ولا يمكننى إعداد أخرى بين عشية وضحاها . منذ عدة سنوات وأنا آتى مع أفعاى إلى الإحتفالات ، ولم يسرق أحد منى شيئاً مطلقاً ، ولا حتى عليه سجائر فارغة . وهذا العام ، أيها السيد المفتش ، يتناولون فلا يسرقون أقل من الأفعى ، الأمر الذى يعادل سرقة إحدى ذراعى ، الذراع اليسرى إذا شئت ولكنها ذراع على أية حال ، أداة من أدوات العمل لم أعد أثير دهشة الناس ولا أستطيع حتى أن أبيع دبوساً » .

كان منهازاً ؛ وبدا أنه سينخرط فى البكاء بشاربه الضخم ، وسحنته التى تحفرها التجاعيد مثل عشب عنكبوت ، وجفنيه المبدورين

تركى ، وسورى ، ولبنانى ، تستخدم كمترادفات فى أمر يكا الجنوبية لوصف المهاجرين من أصل عربى - م

بنسقاط سوداء كحسب الفلفل . طالب بمعاقة السارق ، الذى استطاع التعرف عليه حسب قوله ، وبإعادة الأفعى وكذلك بتعويض عن الأضرار والخسائر عن الأيام التى بقىها دون عمل . وسرعان ما دفع تحت غطاء الطاولة ، فى حركة تبدو عارضة ، ورقة مالية مطوية طيات دقيقة تظاهرت بأننى لم ألحظ ، فقد أردت أن أعرف إلى أى مدى يمكن أن يبلغ هذا الشخص العنيد ، المتوقد ، الذى يتمتع بكل خصائص المرشد بالسليقة . أعدت إليه ورقته المالية بطرف أصابعى وقلت مشيراً إلى الباب : « إبحث عن أفعى أخرى » .

و يبدو أن ذلك ما فعله . فقد أقر بعدها بأنه صعد إلى الجبال المجاورة بحثاً عن أفعى حية ، فى حجم أفعاه ، وأنه فى النهاية وجد وأمسك ما كان يحتاجه . وفى المحضر يقرر أنه فعل ذلك لإحلالها محل الأفعى المسروقة .

كان من الواقعة بحيث أجابنى ، حين سألته أين كان يحفظها : « فى صندوق مثل هذه الصناديق ، ياسيدى المفتش » ، مستشفاً مزاجى بعينيه اللتين تشبهان حقاً عيون الزواحف تحت الجفنين شبه المغمضين اللذين تتناثر فوقها النقاط الدكنة . ورغم ذلك كله كان يبدو وبالغ المودة بسبب حيويته الفائقة . « كنت أعرف أننا سنتفاهم » ، قال لى ذلك وهو يفرك يديه حين طلبت منه أن يبقى فى دار المحكمة ليعاوننى فى بعض المهام ، وأنا على ثقة من إمكانية الإعتماد على تكتمه ، إن لم يكن على إخلاصه ، بعد أن أٌجرى عليه تلك الاختبارات الخفية التى لا تخيب ظنى أبداً مع الرجال الذين ولدوا ليعملوا .

ستتساءل ، ياسيدى الكولونيل ، لماذا أراد التركي أفعى أخرى إذا كان قد وجد أفعاها ، أو على الأقل وجد من سرقها ؟ الإجابة على هذا السؤال هى مايفسر بالضبط حادث الموت رقم ثلاثة : موت الثائبة التى تحمل الصليب . فالأمر يتعلق بها .

لكن قبل متابعة التسلسل الطبيعى للأحداث ، يجب أن أتناول هنا تلك المتعلقة بالقاضى والعمدة ، التى جرت عند منتصف ليل يوم ٨ ، أى بالضبط عند إنتهاء يوم العذراء البتول ، زيادة فى الهزء بالجميع ، مع التسليم بأن التعدى على كرامة عذراء كاكوبية ، راعية البلاد بأسرها ، هوبلا شك تعدى على الشرف القومى . (أعتقد أن هذه العبارة يجب أن تبقى وذلك فى حالة نشر الصحف الرسمية لتقريرى ؛ فلست أريد ألقاء أدنى ظل من الشك حول معتقداتى .)

وواضح أن كل شىء كان يمكن أن يمضى أسرع دون مراسيم الاسترضاء العديدة ، الضرورية والمناسبة بالطبع ، لكنها فيما يتعلق بمهامى عطلتها أطول من المتوقع . فند الصباح وحتى الليل ، بلا انقطاع تقرىباً ، ظلت الكنيسة تدوى بالتراتيل الكهنوتية لمتى أسقف ، وكاهن ، وطالب لاهوت ، حضروا يترأسهم السيد كبير الأساقفة شخصياً ، وجلجلت القرية بأسرها بصياح خمسين ألف شخص مفعمين بالكبرياء فى احتجاجهم العادل وهم يجأرون أكثر مما يغنون ، بمقاطع نشيد العذراء . بديهى أن الإيمان هو العاطفة القومية بلا منازع . وحتى الآن ، كما قلت ، يمكن الاستماع إلى المجموعات المزدحمة على النواصى وفى الردهات ، أو تحت أشجار الجوز ، يصرخون ويعولون كالسكارى :

... كل شعب .. ب .. ب ... الباراجوااى
الذى أقسم ... بحريته هه ...
فى ضوء شمس مايووو
اليوم يهتف ... لهائك ...
... إنه الشعب ... الذى فى الحرب .. ب .. ب ...
وفى السلم ... أحبك ... دائماً .. إلى آخره .

لم يمكن الفراغ من إعادة تمثيل الجريمة سوى أمس ، مع وصول
قسيس الأبرشية . واضطرت إلى استخدام كل القوة لمنع غزو الحشد لدار
الأبرشية . كانت الدوافع بديهية : إذ أن أحداً لم يشأ أن يفوته ذلك
المشهد الذى كان الفصل الأخير من دراما ، أو بالأحرى تراجيديا ،
أقحمتها حيل إبليس الجهنمية فى عيد العذراء المقدس ، محاولة عبثاً
إطفاء بهائه .

القس ، السمين المترهل ، يقرأ كتاب الصلوات فى وحدة مكتبه ؛
ظل عارياً تقريباً ، لا يستره سوى السروال الداخلى ، فحتى تقُدّم
الليل لم يخفف الحرارة وثقل الهواء اللذين يجعلانه يفرز جداول من
إبطية ، وحلمتى ثدييه ، وبطنه المشعر المنتفخ . بين الحين والحين ينهض
ويجفف بالمنشفة كل جسده الذى استحال فقاعة واحدة من العرق ،
لا يفعل هواء المروحة الساخن سوى أن ينفخها أكثر فأكثر ؛ يمسح غلاف
كتاب الصلوات وظهر كرسي الكاهن اللذين تحولاً كذلك إلى عصيدة ،
ويعاود الجلوس محاولاً الاستمرار فى تلاوة الصلوات ، وهو يتشأب بين

الفيسنة والفنية ، متضايقاً بعض الشيء من ضجيج الجمع في الميدان وموسيقى مكبرات الصوت ، اللذين لن يكفّا طوال الليل .

على أية حال ، كان عيد العذراء رائعاً لكنه مرهق ، عظيماً لكنه منهك ؛ فسنذ الفجر قداسات ، وتعميدات جماعية ، والآف الاعترافات ، وطوفان من النذور والهبات يجعل الصناديق المائة والخمسين — الموضوعه فى مواقع استراتيجيه والتى يجرى تفرغها دون توقف — تطلق فى لحظات قليلة . وكان على الأب القس أن يشرف على ذلك كله ، يعاونه نائبيه ، والكهنة الخمسة المدعوون ، والخمسون من « بنات مريم » ، وأغلبهن نشيطات من فرط كبر السن أو من فرط الشباب ، والجميع يتعشرون بلا جدوى فى الغنيمه المبعثرة التى تبعث النشوة .

وطبيعى أن الأب ، رغم رضاه وفخره بنجاح اليوم ، يحس بأنه منهار . نظر إلى الساعة : قبل الثانية عشرة بدقائق سيتناول آخر كوب من عصير الليمون وبعدها سيرقد فى فراشه وهو يشخر فى سلام العادلين

خلال ذلك يسمع خشخشة فى الباب الجانبى للمكتب الذى يؤدى إلى زقاق لقنوات المجارى . يطرف بعينه غير مصدق ويصغى يانتباه . تستمر الخشخشة خبيثة ومتصلة ، متخفيه فى ضجيج الخارج وطين المروحة ؛ واضح أنهم يحاولون كسر القفل . يتمالك الأب المنهار نفسه فجأة . ففى أحد أركان المكتب ، بجوار الخزانة ، ترقد أكوام الصناديق المكتظة بالنقود ؛ وفوق مناضد موضوعة بعناية ، يرقد جبل الهبات والنذور . يرسم الأب علامة الصليب ؛ ففى إنزعاج الوهله الأولى خشى أن يكونوا مقاتلى العصابات وبحركة غريزية يتناول بندقيه ويرفعها

أمام وجهه ، ولكنه منذ تلك اللحظة لا يدري كيف يجب أن يواصل . فلم يطلق أبداً سلاحاً نارياً ، ولم تحدث أبداً أدنى محاولة لسرقة دار الأبرشية ، التي تعد بمثابة إمتداد للكنيسة ذاتها . والآن على وجه الدقة ، يبدو له الدفاع عن نقود العذراء وكأنه تدنيس للمقدسات . في هذه الأثناء إنكسر القفل ، وانفتح الباب محدثاً صريراً خفيفاً من مفصلات الصدئة ، وأمام السماء الداكنة لفتح الباب يرتسم شبها شخصين ملثمين .

في تلك اللحظة تدوى طلقتان كأنها برقان ، وتطرحان الأب على مقعده فوق أرض المكتب . إختفى الشبحان الملثمان . ويقرر الأب أنه لا يتذكر أنه ضغط على زناد البندقية الونشتر في أية لحظة . لكن الواقع أن هذين الانفجارين قد زلزا الدار بأسرها يأتي القساوسة الآخرون وعلامات النوم على وجوههم ، مشعثين وفي ملابسهم الداخلية ؛ وفي أعقابهم نساء الكهنوت ، ساترات أنفسهن في حياء بالملاءات ، والعباءات ، وحتى القفاطين . يحملون معاً الكيلوجرامات المائة للأب ، المنطرح أرضاً ؛ ولكنه يظل يغمغم من بين أسنانه ، دون أن يقلت البندقية : « المثلثون ! المثلثون ! » .

في البداية يظن الآخرون أن الأب قد إنتابه كابوس ، وأنه أطلق الرصاص على ذلك الكابوس . فقد بدأ كل شيء على مايرام ، ربما باستثناء ذلك الباب ؛ لكن ربما واربه الأب بنفسه ليغير هواء المكتب الفاسد .

لكن صرخة تجعلهم يستديرون ؛ فقد رأت احدى النساء طرف قدم على الجانب الخارجى للباب . يشعل أحدهم مصباحاً . وفى بقعة الضوء ، يظل طرف الحذاء يشير إلى السماء دون حراك . يخرج أقرهم ليسنظروا : على أحد جانبي الباب ، على الطوار ، يرقد أحد المثلثين ؛ وعلى الجانب الآخر ، يرقد الثانى ، منكفئاً ، كما لو كان يعض حافة الطوار خلال اللثام حتى لا يكسر أسنانه . يقف القساوسة والنساء مصعوقين . وفى الشارع يبدأ الفضوليون فى التجمع ، مندهشين لهذا المشهد الغريب لكهنة ونساء شبه عراه ، يزدهمون عند الباب الخلفى لدار الأبرشية .

يصرخ القسيس طالباً عباءته و يطالب بالتواجد الفورى لقوى الأمن العام . يخرج نائب القس وكأنه — وهنا يصور التشبيه حالته بدقة — روح يحملها الشيطان ، بحثاً عن العمدة .

أمّا ما حدث خلال الساعات التالية — وأوفر عليك تفاصيله ، ياسيدى الكولونيل — ، فيتلخص فى إنهيار القس الذى لزم وضعه فى فراشه ، ضحية أزمة عصبية حادة ، تعد طبيعية تماماً إذا راعينا الظروف — وقد كتبت الصحف خطأ أنه هرب — ، وفى إنتظار نائب القس الذى يعود حين يبلغ الإرهاق غايته ، عند إنبلاج الفجر ، وبصحبه عريف البوليس الذى يحاول إيجاد العذر لرئيسه ذاكراً أنه اضطر للتغيب برهة فى مهمة . ولا يستطيع العريف لمس الجشتين دون ترخيص من القاضى . فينطلق نائب القس من جديد ، راكباً دراجته البخارية هذه المرة ، و يعود نبأ أن القاضى بدوره متغيب فى مهمة .

إعتقد الجميع أنها لا بد أن تكون نفس المهمة لكن في ذلك الوقت كان أكثر من ألف شخص قد تجمعوا بين قنوات المجارى يراقبون الجسدين الممدين على الطوار والمنديلين الأحمرين يخفيان وجهيهما ، ويتناقشون همساً في كونها مجرمين حقاً أم من مقاتلى العصابات . وكأن هناك فرقاً بين الاثنين .

تجاه ذلك كله ، أمام إلحاح الآباء ، الذين يريدون إنهاء فضيحة الموقف بأسرع ما يمكن ، يقرر العريف التدخل أخيراً . يدير بقدمه الجثة المنكفئة فوق البلاط ، ويجذبه يفرغ فيها كل غضبه ، ينزع عن الاثنين المنديلين الملطخين بالدم . إذا بهما العمدة والقاضى ، على ظهرهما ، عيونهما مفتوحة على آخرها ، وسحنتاهما مقطبتين ، كأنهما مفاجئين وساخطين لإيقاظهما مبكرين .

أخبرنى ياسيدى ، ألا يبدو ذلك فصلاً صنعهُ إبليس بشخصه . ورغم ذلك ، فبراءة القس لا تقبل الشك ، وهذا ما تظهره الأحداث . حالة واضحة للدفاع المشروع عن النفس ، تتمتع بكل الظروف المخففة أخلاقية وقانونية . بل إننى لأقول أكثر من ذلك : إن ما فعله الأب القس كان عملاً من أعمال العدالة الحاسمة ، فقد تحول دون أن يدرى إلى أداة لعقاب إلهى لهذين المسؤولين اللذين لم يترددا فى تلوّث شرف مسؤولياتهما بجريمة نكراء .

إلا أنسى ، من باب الحيلة ، ويهدف تجنب المظاهرات الصاخبة التى كان يجرى الإعداد لها ، سواء احتجاجاً على القاضى والعمدة ، أو

تكريماً للقس — والتي كان يمكن أن تتحول الى شغب — ، قررت ، بإذن صاحب الفخامة ، أن يعود القس من جديد إلى العاصمة حيث يكلف بالتأكيـد بمنصب جديد .

جاء يستودعنى . وحين رأى أكوام الصناديق المحتجزة فى المكتب ، غمغم بحزن : « حصاد كامل ضائع ! » . أعتقد أنه كان يشير الى الخاتمة التعسة لواحد من ألمع الأعياد التى يمكن تذكرها خلال سنوات عديدة ، وإلى عواقبه المعنوية . بهذا الفهم ، أجبته بالمثل المأثور : « البذرة الطيبة ستثمر بعد العاصفة وتطعم من هم أشد إحتياجاً » (كان قصدى مما قلت عن « البذرة » الكامنة فى الصناديق شديد الوضوح ، رغم التورية . لكن ، إلى ماذا أراد أن يلمح حين أضاف ، لما آمال رأسه ورأى برك اللعاب المجاورة لمنضدتى : « لاتروها أكثر مما يجب ، فقد تفسد » ؟ . هل يمكن أن يكون قد رأى فى نظرتى شيئاً يتعلق « بالبذرة » التى تعطن داخلى ؟ لكن ألا يعرف القس من الكتاب المقدس أن البذرة التى تموت هى الوحيدة التى تثمر ؟ الفرق الوحيد هو أن هناك طرقاً مختلفة للموت ؛ والانهاء فى حوىصلة الطيور ، أو فوق الصخور وبين الأشواك ، أو فى الحديد والنار ، ليست أسوأها .)

فى ذلك المساء نفسه ، وخلال دورتى المعتادة فى المولد ، وقعت على إكتشاف مثبت آخر .

فعند مدخل القرية بالضبط ، فى نفس المنطقة التى تفك فيها القوة معسكرها ، وفى مواجهة الفنادق الراقية تقريباً ، أشار التركى ، الذى

كان يركب العربة بجوارى ، الى خُص مقام بالأعضاء الجافة وصفائح
الزنك الصدئة ، يتجمع حوله جمهور كبير ، قاصر على الرجال ، يحتسون
التيسر يريه * ، ويلعبون الورق على العشب بل ويعزفون على الجيتار
رقصات وأغان جوارانية * . وكان من السهل ملاحظة أن جمع الرجال
لم يكن تركيزه فيما يفعل بقدر ما كان في إنتظار شيء . قال اللبناني زاماً
في سخرية شفتية الغليظتين ، « خيمة ماريا دومينجا » لأحد يعرف
المولد مثله ؛ يعرفه شبراً شبراً . لذلك فقط رضيت باصطحابه كمعاون في
تلك الاستكشافات . « خيمة من ؟ » تساءلت ، متضيقاً ، إذ رغم
المرسوم ، مازالت هذه الأوكار تعمل في قلب القرية . قال التركي
« ماريا دومينجا أوتاثو ، عاهرة جوايرا * شهيرة . يبدو أن نذرهما قد
إستجيب . فهي تكسب أكواماً من النقود . »

هممت بقول شيء ، لكن صوتي إحتبس ففي تلك اللحظة ، أطلت
هى من فتحة الخوص : إنها التائبة التى أتت تحمل الصليب على ظهرها
وتحيطها هالة صوفية لإمرأة غشيها النور ! شبه عارية ، تمرّوح الهواء
بسعفة نخيل ، وتطوح في الهواء خصلات شعرها السابغة ، وكأنها تهز
منخلاً . أخذت تصيح في الرجال وتبادل معهم كلمات وإيماءات

• التيسر Teret: شراب يصنع كالشاي من أعشاب محلية ويحتسبها الناس عن طريق أنبوبة
من أوعية مصنوعة من قشرة نبات تشبه جوز الهند - م

• الجوارانى : هندو الباراجواى الذين ما زالت لغتهم وثقافتهم وأغانيهم حية في وجدان نحو نصف
السكان - م

• إحدى مقاطعات الباراجواى - م

فاحشة ، وتستجاوزهم فى الوقاحة وقلة الحياء . وفى إحدى اللحظات ، صوّبت نحوى عينيها الميتين اللتين بدتا لا تبصران . لا بد أن أحداً صفر لها بأن عربة المفوضية فى مواجهتها ، حيث لم أكن أستطيع التغلب على دهشتى . إلا أن ذلك لم يبد أنه يهمها كثيراً ؛ فقد اكتفت بأن تقلب سحنها فى سخرية وعادوت الدخول ببطء دون أن تكف عن المروحة . ولك أن تتصور إحساسى بالأهانة ، ياسيدى الكولونيل !

أمرت السلطات البلدية بطردها فوراً وبإغلاق كل أوكار الرذيلة هذه ، أينما كانت .

ولو لم يكونوا قد أرجأوا تنفيذ الأمر بتأجيلات لأجد لها مبرراً حتى الآن — يبدو أن الإهمال ، وحالة التأجيل التى تجعل كل شىء يتلكأ ، هى البرنامج اليومى هنا — ؛ أقول ، لو كانوا قد أطاعونى ، فربما لم يكن قد وقع المزيد من الأحداث المؤسفة .

ليلا ، ودون إستدعاء ، أتت المرأة التى قالت أنها تريد التحدث معى . وقد دافع مساعدى عنها ، قائلاً أنها أتت بالغة الندم ، وأن من الواجب إتاحة الفرصة أمام المنحرفين للعودة إلى الطريق القويم ؛ بإختصار ، نعرف سيادتكم أمور الرؤسين هذه . راقبتها من إحدى الفتحات ؛ وبالفعل ، بدت إمراة أخرى : إمراة نادمة ، متواضعة ، راضية بحداد من ترملت حديثاً . كان يمكن ، وهى ملتفة فى معطف أسود ، أن يحسبها المرء واحدة من أكثر بنات مريم زرانة . ورغم كل شىء ، رفضت إستقبالها وأرسلت أبلغها بأن تذهب ؛ بل وأن تغادر القرية دون إبطاء .

(دخلت لتحسس ما حولها ، ولم أكد أغلق الباب ، حتى
 إقتربت مهتدية بصوتي ، وسقطت على قدمي باحثة عن يدي وهي
 ترتجف فيما حسبته نحيباً مخنوقاً جعل رأسها تتحرك تحت المعطف .
 عاوتها على النهوض على قدميها ، وعندئذ رأيت أنها بدل أن
 تنتحب ، كانت تضحك بصفاقة العيان الذين لا يظنون أن أحداً
 يراهم ويعتمدون على حصانة ظلمتهم . كانت إزدواجيتها غير
 المعقولة لا تنتهي ؛ كانت تجد دائماً أشكالا جديدة ، مؤثرات جديدة
 تبعث الدهشة ، والأسى ، واليأس . وحتى الآن لا تمضي لحظة
 لأحس فيها أنها على وشك الظهور : العينان الكبيرتان الداكنتان
 اللتان تمحوانى بنظراتها الميتة ، والعظام الناتئة في جبهتها ، في
 وجنتيها ، في أى جزء صلب تلمسه يداى عفواً . في تلك اللحظة ،
 جردتنى الدهشة أولاً ، ثم الارتباك بعدها ، من قواى فلم أستطع
 توبيخها كما تستحق وطردها من المكتب على الفور . وأمام ترددى ،
 فتحت المعطف وحركة مدرّبة تركت الرداء الخفيف يسقط عند
 قدميها وظهرت أمامى عارية تماماً ، مفرقةً المكتب برائحة امرأة
 عمومية ، بعطن الخطيئة ، برائحة تلك المستنقعات التى تجذبنا فى
 ليالٍ معنية بعفنها الغامض الذى لا يقاوم .

لا بد أن دوار النوبة بدأ ينتابنى لأننى لا أتذكر ما تلى سوى
 بصورة مشوشة . فى وسط الدوى الذى جعلنى مجوفاً من الداخل
 ومن بين موجات النوبة الأولى ، كان آخر ما شعرت به أننى أسقط
 بدورى ، أننى الآن أسقط ، أننى سأستمر فى السقوط أمامها ، أن

وجهى يرتطم ببطنها ، بفخذها ، كأنه يرتطم بجدار ، لكنه جدار
لانهائى النعومة والسخونة ، أننى أعبرها برأسى وفى فمى مذاق
حامض ، أننى أسقط وكأنا فوق عش عنكبوت مر ، أننى أنزلق
عز أنبوب يظل يضيق حتى أفقد التنفس والشعور .

خسارة أننى لا أستطيع أن أقول كلمة واحدة من ذلك لتجواتو
* ؛ فلن يفهم ، رغم أن ذلك سيوضح له أشياء كثيرة . وسيسلية
كثيراً علاوة على ذلك . سيجعله يضحك مقهقهاً بتلك الطريقة
التي يضحك بها من الآخرين ، واضعاً يده بين ساقيه وباصقاً
نعيقه .

إيجازاً ، يا سيدى الكولونيل ، ولإنتهاء مرة واحدة من هذه الحكاية
التي لا بد أنها صارت بالغة الملل بالنسبة لك ، أقول أن المرأة وجدت
ميتة فى حضنها ، بعدها بيومين ، بعضة الأفعى التي كان السورى —
البنانى قد إصطادها من الجبال لتحل محل أفعاه المسروقة .

وتيسبادل كل من اللص والتركى إلقاء اللوم على الآخر : فأولها
يزعم أنه ، حين زار القاهرة ، كان يحمل الكيس وبه الأفعى المسروقة ،
أى المدربة الخالية من الأنياب ، وأنه عند خروجه من هناك ، إثر مشادة
حامية مع العاهرة — يبدو أن الرجل لم يكتف بأن يرفض دفع الأجر

• Taguato : الصقر ، الباشق ، باللغة الجوارانية ، و يصف بها الكولونيل — م

المتفق عليه بل حاول إنتزاع ساعة المعصم ، التى هى قطعة خردة لا قيمة لها على الإطلاق — ، نسى الكيس وبه الأفعى فى أحد الأركان . و يزعم التركى أنها الأفعى السامة ، لأنه أبدلها قبلها ببرهة ، على غفلة من اللص ، حين دخل ذلك الأخير حانة ليتناول كأساً ولا أستطيع تجريم التركى ولا اللص ، اللذين طبقاً لقانون العقوبات ، لا يمكن أن تُوقع عليهما سوى عقوبات خفيفة لجنح ثانوية . أما الأفعى المجرمة — التى يمكننا إعتبارها جسم الجريمة — فقد إختفت بعد أن غرست نابها المسموم فى بطن الضحية . وأما الاستجواب الصبور للشهود ، والذى مرر على دار المحكمة طابوراً لا ينتهى من الرجال من كل العينات والانواع ، مضيفاً صفحات وصفحات إلى التحقيق الضخم بالفعل ، فلم يعدل موقفاً كان فى حد ذاته محدوداً بصورة إيجابية ومثل سابقه ، لم يكن بد من ترك حادث الموت ذاك منسوباً إلى تصارييف العناية الإلهية التى لا تقبل الجدل .

(كل ليلة أملاً هذه الساعة الرخيصة الحقيمة ، التى تدق واهنة تحت الغلاف المتآكل بفعل عرق معصها ، التى كانت تدق فى مسمعى بطريقة تصم الأذن حينما ، وأنا راكع قبالتها ؛ ضغطت رأسى بيديها ، ضاحكة ، ساخرة منى ، من سرى . لكن رغم إحتقارها ، الذى ربما كان طريقته فى الحب والفهم ، لم يصل أحد مثلها إلى قرار ذلك السر . حتى ولا أنا كنت أعرفه حتى كشفته لى دون كلام ، بمجرد ضحكته ، بيديها ، بذلك الجلد الذى يكسو

بالحرير عظامها ، والذي لم يكن وراءه بالنسبة لى سوى الفراغ ،
والليل ، والصمت ، وتلك الرائحة ، تلك الرائحة .. لذا فإنها مَيّنة .

بعد أن دخلت الغرفة المجاورة لتتظننى كالليالى السابقة ،
ظللت أعمل فى المحاضر منتظراً صرختها . سمعتها تعثر فى الأثاث
الموضوع عن عمد هذه المرة ، بترتيب مدروس بالتفصيل : فى
البداية كرسى ، ثم آخر ، سقط منه بضوضاء شديدة حوض
الإغتسال الحديدى ؛ وأخيراً ، قرب الفراش ، الصندوق الذى
حمل التركى محتواه واضعاً مكانه الأفعى .

إنفجرت التساؤلات الصماء أخيراً فى صرخة ، فى ضجيج
سقوطها ؛ أنصتُ إلى تشبثها المرتاع على غير هدى قافزة من حائط
إلى آخر ، إلى ضربات قبضتها على الباب الذى كنت قد أغلقته
بالمفتاح ، بينما أسمعها تصرخ ، مرتاعاً ربما أكثر منها ، لكننى مفعم
كذلك لأول مرة بسعادة غريبة ؛ أحسست أننى عبر ذلك الحائط ،
وذلك الباب ، وتلك الصرخات ، أمتلكها الآن حقاً وأجد نفسى
من جديد ... لكن كيف يمكن تذكرة ما لم يكن أبداً ، ما كان ميتاً
داخل المرء قبل أن يولد ... بينما تجبو صرخاتها ، أراها مرة أخرى
تتقدم ، محنية ، متصلة ، تحت الصليب ، وبقعة شعرها تغطى
وجهها ، وأحس من جديد بأن فى يمتلىء بذلك المذاق المر
الساخن لشيء محترق ، بوميض هفة تعود للتزايد ، أبصقها حولى
وكأنها مادة سمى أنا ...)

أبعث إليك بالصناديق ، ياسيدى الكولونيل . ومجموعها ١٣٢ ،
مشمعة ومختومة ، بالاضافة إلى ٧ صناديق كبيرة تحتوى على مواد
الهبات ، مختومة ومشمعة كذلك ، حسب أوامرك .

أمل أن يعطيك هذا التقرير المفكك فكرة تقريرية عن الأحداث
التي جرت ، وأنتهاز الفرصة لأكرر أننى خادمك وصديقك المخلص .



حكي حكاية

منذا يمكنه أن يقول لي أن ذلك ليس صحيحاً؟ — برطم متمهلاً ،
بنبرته المعتادة بين الساخرة والحذرة ، مستقبلاً اعتراضاً غير متوقع على
مافرغ من قوله لتوه والذي بدا لا يُصدّق حتى لو كان هو الذي حكا .

— لكن هناك واقع لا يمكن تزييفه دون رادع — أشار واحد ،
لادافع الرغبة في معارضته بالطبع ، بل لحفزه قليلاً .

— ماذا ؟ — طلب تكرار العبارة محيطاً أذنه بيده ، بإحتقار —
طبعاً ، ذلك مايسميه القانون حقيقة الأشياء . ليتنى أراها ! هل عاش
أحد مايكفي لكي يعرف كل مايجب معرفته ؟ وماذا يتبقى في النهاية
لأكثر العارفين ؟ هذا ... — قال ذلك مُصدراً بأظافره صوت الحركة
المضحكة لقتل برغوث — منذا يستطيع تخمين دوافع أكثر الأفعال بساطة
أو أكثرها تعقيداً و يأساً ؟ دافع وجودنا هنا كذبابات مرتجفة ننتظر شيئاً
لا يحدث ، لاتجمعنا سوى قوة العادة . أو دافع ذلك الرجل في عنبر
الطوارئ الذي يبدأ في إتهام زوجته عضاً أمام مائة من الجيران المرعوبين
الذين يهددهم بمسدس . جنون الحب ، أو الغيرة ؟ شذوذ بلعوم سُم
الطبيخ المنزلي ؟ الحديث عن الواقع موضوعة الآن . رد فعل نمطى لعدم

الأمان ، لعدم اليقين . يريد الناس أن يروا ، و يشمّوا ، و يتحسسوا ،
ويخرجوا ففاعة عزلتهم . لكن ما هو الواقع ؟ إذ هناك واقع مالا يُرى وحتى
مالا يوجد بعد . الواقع بالنسبة لى هو ما يتبقى عندما يكون كل الواقع قد
إختفى ، عندما تكون قد إحتقرت ذكرى العادة ، الغابة التى تمنعنا من
رؤية الشجرة . بإمكاننا فقط أن نشير إليه بصورة غامضة ، أو نخلمه ، أو
نتخيله . إنه بصلة ، تنزغ عنها ورقة إثر أخرى ، وماذا يتبقى ؟ لاشئ ،
لكن ذلك اللاشئ هو كل شئ ، أو هو على الأقل بخار لاذع يجعل
أعيننا تدمع . المسوا حافة تلك المنضدة ، أو أحد أصابع بيانو . هل هناك
ما هو أروع من ملمس الخشب فى طرف الإصبع ، من ذلك الصوت
الذى يرّن لحظة ثم يخبو ؟ ... — وضع أصابعه فوق شفثيه ليطلق برفق
إندفاعة تجشؤه — وماذا عن حياة إنسان ؟ لكن هل يعلم أحد عن ذلك
المحكوم عليه بالإعدام شيئاً أكثر من الشخبطات التى يتركها مخدوشة
على جدران زنزانته . وأحياناً تضلل تلك الحروف أكثر لأننا نحملها
بعذابنا أولاً مبتلاتنا نحن ... — أعاقته لذعة الحموضة لحظة فى تقطيعه
الجهة وتقلص ملتقى الشفتين .

تبادلنا النظرات خفية ؛ كان من النادر أن يصبح البدين وجدانياً أو
عاطفياً . وفى هذه اللحظة ذاتها ، كانت عيناه شبه المطبقتين تكذبان ،
بتكهما ، كلماته .

— أتدرون ما يحدث ؟ الكلام أكثر مما يجب : العالم تسممه
الكلمات . إنها مصدر الجزء الأكبر من أعمالنا الفاشلة ، من ردود
أفعالنا ، من إحباطاتنا . الكلمة هى الفخ الأكبر ، الكلمة العتيقة ،

الكلمة البالية . صحيح تماماً أننا نبدأ فى الموت من أفواهنا مثل الأسماك . أنا نفسى أتحدث وأتحدث . لماذا ؟ لانتزاع أوراق جديدة من البصلة . ذلك لا يؤدى إلى شىء . يجب العثور على لغة جديدة ، من الأفضل أن تكون لغة للصمت يمكننا بها التواصل باختلاجات باللغة الضالة ، مثل الحيوانات — ألا تدركون كم هم أحرار ؟ — بتغييرات صئيلة فى هذا التراكم للموجات المتولدة داخلنا مثل دُمَل على وشك الانفجار . رقه رمش لا تكاد تُرى ستُلخّص كل أناشيد الإلياذة ، بما فى ذلك الأناشيد المفقودة . وانفراجة شفتين ، ستلخّص كل دانتى ، وشيكسبير ، وجوته ، وثر بانتس ، الذين صاروا شديدي الإملال والغموض . الإيماءات الأطول ستعبّر عن أبسط الحقائق : الجوع ، الكراهية ، اللامبالاه . إلّا أن الحب سيصبح أشد بساطة : نظرة ، وفى تلك النظرة رجل وامرأة عار يان ، عار يان حقاً ، من الداخل ومن الخارج ، لكنها محتفظان بكل غموضهما ... ما أدرانى أنا ! لا أحد يعرف عن شىء شيئاً . لا أحد لديه الكلمة الفاصلة فى هذا الشأن . فلتؤمنوا على ذلك ... — عاد ليكتسب تعبيراً وادعاً ، محايداً — إذا كنت أعوراً فى بلد العميان ، فانزع عينك الباقية ، إعتاد أن يقول ذلك جدّى ، وهو عجوز فاجر كان يعرف كيف يمشى تحت المطردون أن يبتل . وكان على صواب . مما لا يعنى القول أن يكون الأعمى على وجه الدقة هو الشاهد على ما لا يُرى ، رغم أنه فى بعض الحالات .. — توقف كما لو كانت الفكرة التى يريد التعبير عنها قد أفلتت منه بغتة ؛ وبعد وقفة ، قال وهو يتفحصنا واحداً واحداً — لقد قالها سينيكا منذ ألفى عام : « مع من يمكننا التواصل ؟ » وما أدرانى أنا بحق الجحيم ، لماذا لا تسألوا موجهو؟

كان يحوطه جومن اللاواقعية الوادعة ، الحاملة ، المترهلة . إلا أن له لحظة الكلام والحركة يدين شاحبتين ، لينتين لعازف بيانوفى إجازة . سميناً وضخماً ، كان يطفر من المقعد الذى استرخى عليه . كان جسده يركز على شئ أكثر من ثقل اللحم ونعومته الطاغية . بدا أن نفس الهواء الذى يخيم عليه يسحقه ، ويشوّهه ، نافخاً ومفرغاً إياه من الداخل خلال التنفس . وفى السحنة التى كأنما أصابتها السكتة ، كان الفم ، الذى لم يفقد تماماً خطوطه الجميلة ، هو الشئ الوحيد الذى يقاوم الدمار . بدا أن كتلة القماش السميك تضم رجلين لا يريد أيهما أن تكون له علاقة بالآخر . كانا قد كبرا معاً ، وامتزجا أخيراً ، لكنها مازالا يحاولان معارضة أحدهما الآخر ، تجاهل أحدهما الآخر ، ولا علاج لأى منهما ، على الأقل لدى الآخر . ورغم ذلك كان الصوت المبجوح الرتيب يخدم كلاً منهما ، على قدم المساواة ، دون محابة .

— لم السؤال إذن ، وعدم توضيح شئ — أضاف بعد وقفة كان يقضم فيها الطرف المسحوق للسيجار — صنع ليوناردو أسداً . سار بضع خطوات ، ثم إنفتح صدره فظهر أنه ملئ بالسوسونات . وذلك الأسد... — لكنه عاود الصمت . فوق السحنة المنتفخة رفّت إبتسامة ميتة .

أعتقد أن أحداً منا لم يفكر فى تلك اللحظة فى الاعتراض ، فقد نسينا الحكاية التى كان قد بدأ يقصها عمداً عن بعض النفيين الذين يتمكنون من إغتيال سفير بلدهم بمساعدة رجل أعمى . أصر البدين على أن الأعمى قد طعن الرجل العسكرى ، المحكوم عليه منذ زمن طويل بسبب

أعماله الوحشية ولأنه نظّم وأدار جهاز قمع النظام . كان الهجوم والجريمة عبثيان لا يُصدّقان ، حسب رواية البدين . لكن لم يكن بالإمكان رفض شطحاته . ببساطة ، كان لابد من الاستماع إليه . ليس لعجزه عن الإنصات بدوره ، بل لأن المرء يحس أنه مُحصّن ضد الآراء ، وضد عدم تصديق الآخرين . ربما لم يكن ذلك أنانية أو خيلاءً ، بل عدم إهتمام ، لامبالاة تشبه اليأس ، يحاول إخفاءها بمرح سخرية بريئة بدورها . أكثر من مرة شككت أن به بعض الصمم وأنه بهذه الطريقة يتجنب مهانة الإعتراف بذلك .

فشلاً ، لم يكن لما فرغ من قوله لتوه أية علاقة بما كان يقوله قبلها . لكنه كان يقفز على هذا النحو من موضوع إلى آخر دون رابطة ، أو يفش عن « حدسنا » خلال وقفات مفاجئة ، تعقبها فترات صمت طويلة منيعه ، بين رشفة وأخرى من الحين ، يدير بعدها الكأس بنقرات إيقاعية من أصابعه على الزجاج . لم يكن ممكناً أبداً تبين متى يلقي دعاية أو يسترجع حادثة ، ومتى يختم حكاية ويبدأ أخرى يستمدّها من سابقتها ، « مقشّراً البصلة » . لكننا لم نفلح أبداً في جعله يحكى لماذا ترك مهنة عازف البيانو التي حقق فيها بعض الشهرة ، على إثر تلك الجولة في المدن الداخلية التي وجد نفسه خلالها متورطاً في مأزق عبثي مع زوجة محافظ . كان مانعرفه غامضاً وغير مؤكد ، ورغم الفضيحة التي أثارها في حينها بعض الصحف الريفية ، كان شبه مؤكد ألاّ ذنب له سوى ما أحاطته به الظروف . كانت قد إنقضت سنوات عديدة ، ولم يُردّ أبداً أن يتحدث عن ذلك الموضوع . وإذا ألمح أحدنا إلى الأمر ، كان يظل صامتاً . كانت

عيناه المحمرتان ، اللتان تبدوان بلاحدقات ، ترمشان دامتتين ، مستاءتين ، وتظلان ناعستين برهة طويلة . لكن أحدنا اكتشف ذات مرة ، بين صفحات قاموس موسيقى ، صورة امرأة جميلة تحمل إهداءً متحذلقاً وساذجاً بعض الشيء يشى بسيدة الحكاية الريفية . بعدها بفترة اختفت الصورة بدورها ، ووضع البدين مكانها صورة داعرة قصّها من إحدى مجلات الجنس الرخيصة للسخرية من التلصصات المستقبلية .

لم يكن لنا حيلة سوى إحتماله . كنا ننصت إليه نافذى الصبر ومتشوقين لأننا كنا نستطيع دائماً الاستفادة بشيء في كتاباتنا للمجلات . كانت جعبته لا تفرغ ، ولم يكن يكرر حكاياته أبداً . أعتقد أنه كان يخترعها وينساها عمداً . كنا نتداول موهبته الفاقدة الذاكرة ، رغم أنه كان علينا دائماً أن نتخيل ونعيد إختراع ما تخيله واخترعه ، مكملين العبارات التى يأكلها ، تلك الكلمات التى كانت غمغات غير مفهومة ، فترات الصمت تلك المشحونة بالنوايا الماكرة ، والتى تحتمل كل المسارات الزائفة والتفسيرات المتناقضة . كان يتسلى على حسابنا ، هذا مؤكد ، معذباً إيانا بطريقته الشيطانية ، المتقلبة ، شبه المغرزة فى الحكى . . كان البدين يضحك منا فى باطنه ، لكن التوازن الشاذ لكرشه يخفيه جيداً .

تلك الليلة لم نكن كثيرين . ثلاثة أو أربعة على الأكثر . كان الجو حاراً . وكان هو أكثر وضوحاً وخملاً من عادته . يتكلم ، ويشرب ، ويصمت . كانت تغطى الأنف الضخمة والجهة الممتدة حتى الصلعة المحاطة بشعرات رمادية خفيفة ، قطرات صغيرة لا تُحصى من العرق .

كان يمرر يده ، ويمسح الجلد المتهدل ، لتعود القطرات للظهور على الفور .
يخيل إلى أننى مازلت أراه .

حكى حكايات عديدة . ربما كانت ، كالعادة ، حكاية وحيدة متفرقة عبر أحداث متناقضة ، ممزقة طبقة إثر طبقة و باعثة مذاقها اللاذع الفانتازى . بعد الإشارة إلى الواقع الذى لا يمكن سبر غوره وإلى أسد ليوناردود افنشى الممتلى بالسوسنات ، بدأ يحكى لنا حكاية الرجل الذى حلم بمكان موته . حكاها دفعة واحدة ، دون مزيد من الوقفات أو الاستطرادات . رأى الرجل فى أحلامه المكان الذى سيموت فيه . فى البداية لم يدرك تماماً أين كان . لكن البدين ، على خلاف عادته ، صرح أخيراً بمكنون قلبه فى وصف مستفيض . حكى أن الرجل عاش بعدها يرتجف فرقاً من أن يصادف فى الواقع المكان المقدور المحتوم . قص حلمه لعديد من الأصدقاء . فأجمعوا على أنه لا يجب أن يولى الأحلام أهمية . ذهب إلى محلل نفسى لم يصنع سوى أن زاد رعبه . وانتهى به الأمر إلى أن يحبس نفسه فى مسكنه . وذات ليلة تذكر بغتة مكان الحلم . كان هو نفس حجرة مسكنه .

إختلج صوت البدين فى شهقه . كانت سحنه شاحبة ، لزجة أشار بيده إلى شىء أمامه . أدركنا أبصارنا نتبع الإيماء الثقيلة المتباطئة ، دون أن نفهم بعد . لم يكن فى فراغ الباب أحد ، لكننى شعرت للحظة بلفحة باردة فى أسفل عنقى . ظنناها شطحة جديدة من شطحات البدين . فقط عندما إستدركنا نحوه فهمنا فجأة : كان ما وصفه البدين

نقطة نقطة هو الحجرة التي كنا بها . كان السيجار المبتل قد سقط فوق صدره الذى لم يعد يختلج بلهاته الضعيف . وكانت عيناه الزجاجيتان مشبتين فينا بالتسامة عابثة .



القفر

كانا بلاوجه ، متلصصين ، تأكلهما الظلمة . لايزيدان عن أن يكونا
شبحين إنسانيين بصورة غامضة ، جسدين ضائعين في ظليهما . متماثلان
ورغم ذلك شديداً الاختلاف . أولهما ساكن ، يتحرك في مستوى الأرض
بسلبية البراءة أو اللامبالاه المطلقة . والثاني مقوَّس ، يلهث من جهد
جرّه خلال الأعشاب والقمامة . كان يتوقف بين الحين والحين ليلتقط
أنفاسه ، ثم يبدأ من جديد وهو يز يد من تقوَّس ظهره فوق حملة . لا بد أن
رائحة مياه الجدول الراكدة تنتشر الآن في كل مكان ، تريدها العفونة
المغشية للقفر الذى ينضح برائحة الصدا ، وروث الحيوانات ، تلك
الرائحة اللزجة المنذرة بطقس ردىء والتي كان الرجل يمسح وجهه بيده
لإزالتها بين الحين والحين . كانت قطع الزجاج أو المعدن تتصادم بين
الأعشاب رغم أنه من المؤكد أن أياً منهما لم يكن يسمع ذلك الحفيف
المتصل ، الشبحى ، ولا الطنين المكتوم للمدينة الذى بدا أنه يدوى بعيداً
تحت الأرض . ربما لم يكن من كان يجرى يسمع سوى الضجيج اللين
الأصم للجسد عند إرتطامه بالأرض ، وخشخشة بقايا الأوراق أو
الإصطدام المصمت للحداء بالعُلب الفارغة والحصى . أحياناً كان

كتف الآخر يشبك في الجذوع الصلبة أوفى أحد الأحجار . عندئذ كان ينتزعه جذباً ، مغمغماً باستغراب ثائر أو مُطلقاً مع كل جذبة زفرة هيه ... المضغوطه التي يُصيرها الحمالون عند رفع الحمولة المستعصية على الحمل . كان واضحاً أن الأمر يزداد عليه صعوبة . ليس فقط بسبب تلك المقاومة السلبية التي تعوقه في العقبات من آن لآخر ، بل ربما أيضاً بسبب ما به من الخوف ، أو النفور ، أو الضيق الذي يلتهم قواه ، دافعاً إياه إلى الإتياء بأسرع ما يمكن .

في البداية جرّه من ذراعيه . ولولم تكن الليلة شديدة الحلكة لأمكن رؤية زوجى الأيدي المشتبكين ، صورة سالبة لإنقاذ معكوس . وحين أخذ الجسد يشتبك من جديد ، أمسك بالساقين وبدأ يسحبه مديراً له ظهره ، مائلاً بشدة إلى الأمام ، مرتطماً بقوة في الحُفر . وأخذت رأس الآخر ترتطم في سقطات مرحة ، مبهجة بالتغير على ما يبدو . وفجأة سكبت مصابيح سيارة في منحنى ضوءاً إنتشر في موجات فوق تلال القمامة ، وفوق الأعشاب ، وتعرجات الأرض . فتمدد الذي كان يحجر بجوار الآخر . وللحظة ، تحت هذه اللمسة الشاحبة ، إكتسبا وجهين ما ، أحدهما باهت ومفزوع ، والآخر ملطخ بالطين ، ينظر دون مبالاه . وسرعان ما عادت الظلمة تبتلعهما .

نهض وواصل سحبه قليلاً ، لكنها كانا قد بلغا موضعاً فيه الأعشاب أطول . وضعه مستريحاً قدر استطاعته ، ولفّه بالقمامة ، والأغصان الجافة ، والحصى . بدا غير متوقع أن يود حمايته من تلك الرائحة التي تملأ القفر أو من المطر الذي لن يتأخر في السقوط . توقف ،

ومرّ بذراعه فوق جبهته التى يغمرها العرق ، وتمخط و بصق فى حنق .
حينئذ أنصت إلى ذلك البكاء الذى باغته . كان يتصاعد ضعيفاً ومخنوقاً
من بين الأعشاب ، كما لو كان الآخر قد بدأ فى الاحتجاج بعويل طفل
حديث الميلاد تحت قبر القمامة .

شرع فى الفرار ، لكنه حبس أنفاسه يغمره الشعاع الخاطف لبرق
إنتزع كذلك من الظلمة كتلة الجسر المعدنية ، كاشفاً له قصر المسافة
التى كان قد قطعها . أمال رأسه ، مهزوماً . ركع واقترب وهو يكاد
يتشمم ذلك البكاء الخافت ، المخنوق ، المتصل . كان بقرب الكومة
شكل مائل إلى البياض . ظل الرجل برهة طويلة لا يدرى ماذا يفعل .
نهض ليتمشى ، وخطى بضع خطوات مرتجفاً ، لكنه لم يستطع التقدم .
الآن كان البكاء ينطلق منه . تراجع وثيداً ، متحسناً طريقه ، ولاهثاً .
عاود الركوع وهو لا يزال يترنح . ثم مديده . خشخش ورق اللقافة .
وبين أوراق الصحيفة تكشفت هيئة آدمية ضئيلة ، أخذها الرجل بين
ذراعيه . كانت حركته خشنة وبلا ذاكرة ، حركة شخص لا يدرى ماذا
يفعل لكنه لا يستطيع بحال الكف عن فعله . نهض ببطء كما لو كانت
قد اصابته رقة مباغته شبيهة بأشدّ الأحزان ، ومنزعجاً سترته ، لف بها
الطفل الرطب الباكى .

مسرّعاً أكثر فأكثر ، يكاد يعدو ، إبتعد عن الأعشاب يصحبه
البكاء ، واختفى فى الظلمة .



النفق

حدث أول إنهيار للتربة خلفه على بعد نحو ثلاثة أمتار. لم يبذل له في البداية شيئاً خطيراً. لأبد أنه مجرد عرق رخو من التربة فوقه. بالكاد، إزدادت الظلمات كثافة في الثقب المعذب الذى لا يمكن لرجل أن يتقدم فيه أو يتقهقر سوى زحفاً على بطنه. ما كان ليستطيع التوقف الآن. واصل تقدّمه بصحن الصفيح الذى يقوم له مقام المثقاب. شجّعته الرطوبة المتزايدة التى أخذت تتخلل الصخر البركانى الصلب، فلن يكون الأخدود بعيداً؛ نحو أربعة أو خمسة أمتار، على الأكثر، تعادل نحو خمسة وعشرين يوماً أخرى من العمل حتى الفتحة المحرّرة عند النهر.

كان ستة سجناء، يتبادلون العمل فى نوبات متعاقبة من أربع ساعات، يجعلون النفق يتقدم عشرين سنتيمتراً يومياً. كان بإمكانهم التقدم أسرع، لكن طاقة العمل كانت محدودة بإمكانية التخلص من التربة فى وعاء المهملات دون أن تُلاحظ.. إمتنعوا عن التبول فى الدلو الذى يدخل ويخرج مرتين فى اليوم. كانوا يتبولون فى أركان الزنزانة الرطبة المتشققة، وبذلك كان مايزيد من الرائحة البشعة للزنزانة

يجعلهم يكسبون بضع سنتيمترات إضافية من « القاع » لتهدئ التربة المحفورة .

كانت الحرب الأهلية قد إنتهت منذ ستة أشهر . ودام حفر النفق أربعة . وفي تلك الأثناء ، كان قد مات لأسباب مختلفة ، ليست لطيفة على الإطلاق ، سبعة عشر من السجناء السياسيين التسعة والثمانين الذين كانوا مكومين في تلك الزنزانة الماحلة ، البؤرة ، المرحاض ، سجن العبيد العطن ، حيث في أوقات الهدوء لم يكن ليدخلها أبداً أكثر من ثمانية أو عشرة سجناء عادين .

من بين السبعة عشر سجيناً الذين إرتكبوا حماقة أن يقضوا نحبهم ، كان تسعة قد ماتوا بأمراض مختلفة أصابهم قبل أو بعد السجن ؛ وأربعة ، نتيجة الضغوط العاجلة لغرفة التعذيب ؛ وإثنان ، السرعة العاتية للسسل المتفشى . وانتحر إثنان آخران بقطع شرايينهما ، الأول بسن مشبك الحزام ؛ والآخر ، بالصحن ، الذى سنّ حافته على الحائط ، والذى يمثّل الآن أداة فتح النفق .

هذه الإحصائية كانت هى ما يوجّه حياة أولئك التعساء . آمالهم وإحباطاتهم . عذابهم المتكلس والحساس رغم ذلك . عطشهم ، والجوع ، والآلام ، والعطن ، كراهيتهم المشتعلة فى الدماء ، فى العيون ، مثل تلك الفراشات الزيتية التى كانت ، على بعد بضعة أمتار من هناك — ربما مجرد مائة متر — تلمع فى الكاتدرائية أمام صور القديسين .

النَّفْس الوحيد كان يأتي من الثقب الذى مازال أعمى ، الذى لم يولد بعد ، والذى كان ينمو مثل إبن فى أحشاء أولئك الرجال المتلفين . من هناك تأتي الرائحة النقية للحرية ، نسمة منعشة ولامعة بين البراز . وهناك كانوا يلمسون ، فى إلحاح يسببه الدوار ، كل ما هو أبعد من تلك الفتحة السوداء .

ذلك ما كان يحسّه السجناء حين يخمشون الصخر البركانى بصحن الصفيح ، فى ليل النفق المعذب .

طمر إنهار جديد ساقيه حتى الكليتين هذه المرة . ودّ أن يتحرك ، أن يلم أطرافه المحاصرة ، لكنه لم يستطع . فجأة ، إنتابه وعى دقيق بما حدث ، بينما الألم يتصاعد بضربات صمّاء فى لحم ، وفى عظام الساقين المدفونتين . لم يكن مجرد عرق رخو . ربما كان إسفيناً من التربة ، كتلة سميكة تصل حتى السطح . ربما كان أساس بأكمله يتهاوى بفعل الخلخلة التى أحدثها الإنهار .

لم يبق أمامه سوى أن يحفر إلى الأمام . أن يحفر بكل قواه ، مقطوع النفس . أن يحفر بالصحن ، بالأظافر ، إلى أقصى ما يستطيع . ربما لم تكن خمسة أمتار متبقية ، ربما لم تكن خمسة وعشرين يوماً من الحفر هى ما يفصله عن الفتحة المحررة عند أحود النهر . ربما كانت أقل ؛ مجرد بضعة سنتيمترات ، بضعة دقائق أكثر من الخدش العميق . تحول إلى رطوبة . أخذ يزداد نشاطاً بقدر ما ينفذ منه الهواء . كان أمله يتزايد مع

إسفسكسيا الاختناق . جعله قليل من الطين الندى بين أصابعه ينفجر في صرخة شبه سعيدة . لكنه كان من الاستغراق في فرحته ، وكانت ظلمة النفق التى تبعث اليأس تلقّه ، بحيث لم يستطع إدراك أن قرب النهر ، ان رشح مياهه ، لم يكن هو ما يصنع ذلك الطين الندى ، بل دمه هو المندفع من تحت الأظافر ومن أطراف الأصابع التى جرحها الصخر البركانى . الأرض الكثيفة التى يتعذر إختراقها كانت ، فى خاتمة صراع الموت الذى بدأ منذ زمن طويل ، هى التى تستنفذه الآن بلا كلل وتبدأ فى إتهامه وما زال حياً وساخناً . فجأة ، بدا أنه يتباعد قليلاً . تحبّط يدها فى الفراغ . كان هو من تخلف فى الهواء مثل حجر يبدأ فى خنقه . حاول التقدم ، لكن ساقاه كانتا قد أصبحتا بشكل نهائى جزءاً من الكتله التى تهافت فوقها . لم يعد حتى يحس بهما . لم يعد يحس سوى بالاسفسكسيا . كان يغرق فى نهر مصمت وقاتم . كفت عن الحركة ، عن الصراع عبثاً . وأخذ التعذيب يتحول إلى عذوبة لا توصف . بدأ يتذكر .

تذكر ذلك النفق الآخر فى حرب التشاكو^(١) ، منذ زمن بعيد .
 زمن يبدو له الآن خرافياً ، ورغم ذلك يتذكره بوضوح ، بكل تفاصيله .

(١) حرب التشاكو (٣٢ — ١٣٥) بين أفقر شعبين فى أمريكا الجنوبية ، الباراجواى وبوليفيا ، وصفت بأنها « حرب الجنود الغراء » . فى ٣٠ مايو ١٩٣٤ كشف السناتور هوى لوتج عن ولاية لويزيانا أن شركة ستاندارد أويل قد فجّرت الحرب بأن مولّت الجيش البوليفى ليطالب بحقوق إقليمية فى إقليم التشاكو التابع للباراجواى وذلك بسبب الإحتمالات البترولية للاقليم . وكانت الحرب بمثابة مذبحة لم تتخلف فيها شركة شل المنافسة عن تمويل جيش الباراجواى وقد كسبت الباراجواى الحرب لكنها اضطرت للتخلى عن بضعة آلاف من الكيلومترات لبوليفيا . وترأس لجنة المفاوضات بين البلدين ممثل شركة ستاندارد أويل — م .

في جبهة جوندرا ، كانت الحرب قد وصلت إلى حالة جمود . كانت قد إنقضت سته أشهر والباراجويون والبوليفيون يتبادلون ، مغروسين وجهاً لوجه في مواقعهم الحصينة ، تراشقات وشتائم عنيدة . ولا يفصل بين الفريقين أكثر من خمسين متراً .

خلال وقفات ليال معينة جعلها النسيان الحزين فجأة ماثلة بقسوة في الذاكرة ، كان الفريقان يتبادلان ، بدل المدفع الرشاش ، موسيقى وأغان من وطنهما .

كان الألتيبيلانو^(٢) بأسره يهبط ، صخرياً وموحشاً ، يجذبه انين موسيقى الكويكا^(٣) ؛ جنس بأسره ، صيغ من النحاس واللجنة ، يهبط من هضبته الكونية إلى تراب الخنادق النهم . وإلى هناك تهبط من الانهار الضخمة ، من غابات الباراجواى الهائلة ، من قلب قومها المضطهدين أيضاً بصورة عبثية وفظة ، موسيقى البولكا ، والأغنيات الجوارانية^(٤) ، ملتحمة ، ومتاخية مع ذلك النفس الغنائي الآخر الذي يتصاعد من الموت . وجرى الأمر على هذا النحو لأنه كان من الضروري أن يظل أناس أمر يكيون يموتون ، يقتتلون ، حتى تجد اشياء معينة تعبيراً دقيقاً

(٢) الألتيبيلانو: هضبه بوليفيا .

(٣) الكويكا : موسيقى رقصات شعبية هندية الأصل مشهورة في بوليفيا وكذلك في بعض أجزاء البيرو وتشيلي .

(٤) البولكا : موسيقى رقصات شعبية . والجوارانيات : أغنيات هنود الجواراني في الباراجواى .

عنها فى لغة الإحصاءات والسوق ، فى التبادلات والسلب الدقيقين ،
بأرقام وأعداد مضبوطة ، فى نشرات النهب الدولية .

فى إحدى تلك الوقفات وفى صحبة أربعة عشر متطوعاً آخرين ، بدأ
بيروتشورودى ، طالب الهندسة ، الإبن البار ، والأخ الممتاز ، الاسمر
الجميل الرقيق ذو العينين الخضراوين ، فى حفر ذلك النفق الذى يجب
أن يفتح خلف المواقع البوليفية بفتحة ستنفجر فى اللحظة المعلومة مثل
فوهة بركان .

خلال ثمانية عشر يوماً إكتملت الأمتار التمانون للثقب الواسع تحت
الأرض . وبدأ البركان إنفجاره بحمم صلب من الرشاشات ، والقنابل
اليدوية ، والمقذوفات من كل الأعيرة ، حتى سحق المواقع المعادية .

تذكر ، فى الليلة الزرقاء ، بلاقر ، السكون الغريب الذى سبق
المذبحة وكذلك السكون الذى أعقبها ، حين كان كل شىء قد إنتهى .
سكونان متماثلان ، جنازىان ، نابضان . وبين الإثنين ، لم تبدل
سوى مواقع النجوم تبديلاً طفيفاً . كان كل شىء على حاله . باستثناء
بقايا تلك المجزرة البشعة التى أضافت على أكثر تقدير تفصيلاً جديداً
لايكاد يُحسّ إلى ديكور المشهد الليلى .

تذكر ، قبل الهجوم بشائية ، رؤيته للأعداء غارقين فى النعاس
الهادى الذى لن يستيقظوا منه . تذكر إنتقاه لضحاياه ، مطوقاً إياهم
بدورة رشاشه الصامته . وفوق كل شىء ، ضحية واحدة منهم : جندى

كان يتلوى فى دوامة كابوس . ربما كان يحلم فى تلك اللحظة بنفق مماثل لكنه معاكس لذلك الذى كان الفناء يدهمهم منه . فى الحقيقة كانت تلك التمايزات تفتقر إلى الأهمية ، فى إطار تفكير على درجة كافية من الشمول والمرونة . فصادفة كون أحدهما هو الجلاّد والآخر الضحية الوشيكة كانت أمراً غير ذى قيمة . لكنه فى تلك اللحظة لم يكن ليستطيع إدراك ذلك .

تذكر فقط أنه أفرغ مدفعه الرشاش تماماً . تذكر أنه حين أفرط الرشاش فى السخونة وإنسد أخيراً ، تركه ثم استمر يقذف القنابل اليدوية ، حتى تحذّل ذراعاه على جانبيه . أغرب ما فى الأمر أنه ، بينما تجرى هذه الأشياء ، إخترقته ذكريات أحداث أخرى ، واقعية وخيالية ، لم تكن تربط فيما بينها فى الظاهر أية رابطة وضاعفت ، فى المقابل ، من إحساس الحلم الذى كان يسبح فيه . ففكر ، مثلاً ، فى وشاح أمه القرمزى (واقعى) ؛ فى الفراشة البرونزية الضخمة لقبر الشاعر أورتيث جيريرو (خيالية) ؛ فى أخته الصغرى ماريا إيسابل ، التى نالت مؤخراً شهادة معلمة (واقعية) . ودامت هذه اللمحات المفككة لخياله طوال الوقت . تذكر أنه عاد بها مخوّضاً فى مصبّ شاسع وكثيف من الدماء .

نفق التشاكو ذاك وهذا النفق الذى إقترح بنفسه حفره فى أرضية السجن ، الذى بدأ بنفسه حفره ، والذى ، فى النهاية ، أصبح له هو فقط بمثابة شرك الموت ؛ هذا النفق وذاك كانا نفس النفق ؛ ثقب وحيد مستقيم وأسود له فتحه دخول لكنه بلافتحه خروج . ثقب أسود ومستقيم

كان رغم استقامته قد طوّقه منذ مولده مثل حلقة تحت الأرض ، قاتله وبلا رجعة . نفق كان عمره الآن بالنسبة له أربعين عاماً ، لكنه في الحقيقة أكبر بكثير ، من عمر سحيق حقاً .

ليلة التشاكو الزرقاء تلك ، التي تعج بالصيحات والجثث ، كانت قد خدعته بمخرج . لكنها لم تكن سوى حلم ؛ أقل من حلم : الديكور الخرافي للحلم قادم وسط دخان المعركة .

مع آخر نفّس ، سيعود بيروت تشورودي ليحلم بها : أى ليحيها .
الآن فقط صار ذلك الحلم البعيد واقعاً . الآن حقاً يبشر بالفتحة التي تعشى البصر ، بدائرة الخروج المكتملة .

حلم (تذكر) أنه عاود الخروج من فوهة البركان المنفجر تلك نحو الليلة المعدنية ، الراعدة ، المصطبغة بالزرق . عاود الإحساس بالرشاش ملتبهاً ومختلجاً في يديه . حلم (تذكر) أنه عاود إفراغ دفعة من الطلقات إثر دفعة وأنه عاود إلقاء قنبلة يدوية إثر قنبلة . حلم بـ (تذكر) وجه كل واحد من ضحاياه . رأهم بدقة . كانوا تسعة وثمانين في مجموعهم . عندما عبر الحدّ السرى ، تعرف عليهم في وميض خاطف وارتجف : فتلك الوجوه التسعة والثمانون الحيّة والمفرزة لضحاياه كانت (وسوف تظل في وميض فوتوغرافى لانهائى) هى وجوه زملائه في السجن ، بما فيهم الموتى السبعة عشر ، الذين زادوا واحداً . حلم بنفسه بين أولئك الموتى . حلم بأنه يحلم داخل نفق . رأى نفسه يتلوى في كابوس ، حالماً بأنه يحفر ، ويقاقل ، و يقتل . تذكر بدقة الجندي العدو الذى صرعه برشاشه ، بينما

كان يتلوى في كابوس . حلم بأن ذلك الجندي العدو يصصره الآن
برشاشه ، إنه يشبه تماماً حتى يمكن القول أنه أخوه التوأم .

بقى حلم بيروتشورودي مدفوناً في ذلك الشق مثل ماسة سوداء
ستضيء ذات ليلة أخرى .

إكتشفت محاولة الهروب الفاشلة ؛ إكتشفت فتحه الدخول في
أرضية الزنزانة . وألهم الأمر الحراس .

في الليلة التالية ، وجد مجتاء الزنزانة رقم ٤ (المسماه بالوادي
الصغير) ، باستثناء الهارب بيروتشورودي ، المزلاج مفتوحاً بصورة
لا تُفسّر . جَسَّوا بعيونهم ليل الفناء المشؤم . وبصورة لا تُفسّر ، وجدوا
الممرات والردهات مهجورة . تقدموا . لم يواجهوا في الظلمة ظل ديدبان
واحد . بصورة لا تُفسّر بدا المبنى الدائري مجهوراً . كان الباب الخلفي
المؤدى إلى زقاق مسدود موارباً بصورة لا تُفسّر . دفعوه ، وخرجوا . عند
خروجهم ، ومع أول لفحة منعشه ، صرعتهم بالجملة فوق الأحجار
النيران المتقاطعة للرشاشات التي بصقتها فوقهم خلال بضع ثوانٍ المزاغل
الداكنة للمبنى الذى يمكن مراقبته بأسره من نقطة واحدة .

في اليوم التالى ، لم تعرف المدينة سوى أن بضع سجناء قد تمت
تصفيتهم لحظة محاولتهم الهروب عبر نفق . إستطاع البيان الرسمى أن
يكذب بالحقيقة . فقد كانت هناك قرينة لا تُدحض : النفق . دُعِيَ
الصحفيون لفحصه . وغمرهم الرضى لرؤية فتحة الدخول في الزنزانة .

وأغفل الدليل بعض التفاصيل العديمة الأهمية : المخرج غير الموجود والذي لم يطلب رؤيته أحد ، وبقع الدم التى مازالت طرية فى الزقاق المهجور .

بعد ذلك بقليل تم سدّ الثقب بالأحجار ، وعادت الزنزانة رقم ٤ (الوادى الصغير) لتتكس بالسجناء .



الطائر الطنان

مال العجوز بجسده إلى الأمام بمشقة ، وترك الكتاب في زاوية الطاولة وعاد ليغوص في الكرسي ، محاولاً الإبقاء على نفسه منتصباً أمام ظهر الكرسي البالغ الارتفاع بالنسبة له . إنتظر دون حراك ، وعظام أصابعه ، ورأسه الحاسر ، وحنجرته ، تكاد تطفر من الجلد بفعل الضوء القوي للأباحورة ذات القائم الذى يجعله شفافاً ، غير واقعي .

لم يتحرك أو ينظر حين نهض الآخر ليحضر النقود . صر بلاط الأرضية تحت خطوات صاحب المنزل المتفاوتة الحذرة ، كأنها على أطراف الأصابع .

كانت الخزانة غائصة في الجدار، بين الأرفف المكتظة بالكتب والأعلام المثبتة في عصي تبرز من حامل شمسيات ، في أشد أركان الغرفة ظلمة ؛ هناك أيضاً تكومت أسلحة ، وميداليات ، وأثاثات عتيقة ، ونقوش قديسين تكاد تخفى وجوههم الظلمة والتراب . وكانت فراغات المشربية تُنفذ من الجانب الآخر خضره الغروب التي تذوب في الفناء الداخلى الملئ بدوره بقطع التحف : قنابل قديمة من الحرب الكبرى بعرباتها ومقدوفاتها وقد تأكلت بفعل الصدأ ، وكتل من إحدى

الواجهات مُسَوَّدة بفعل إحتراق الزمن أو النار، وبقايا محاريب ،
وأسقف مُكفَّته ، وتماثيل مشوَّهة من الحجر أو الجبس .

عاد صاحب البيت رافعاً أوراق العملة عالياً ، والعوينات ذات
الزجاج السميك تتبع إيقاع اليدين .
— ثمن جيد لكتابك ، أوكد لك .

لم يرد الآخر . إستمر في نفس موقف التسليم اللامبالي ، الذى
كان ، بطريقة ما ، يعطى الإنطباع بأنه قد أذعن : الرأس غائص بين
الكتفين ، والعمود الفقرى ملتصق تماماً بظهر المقعد ، برغبة في الإختفاء
أو الرفض بلغت من الضخامة حد أن بدا أنه لم يعد موجوداً ، لولا السترة
الحريرية المرقشة بالبقع والرفى والتى كانت تتهدل فوق جسمه
النحيل ، المصوص ، الفارع ، والدثار البالى الذى ينزلق عن كتفيه ،
وقبعة الجوخ التى لا تقل بلى ، والتى كانت تستقر فوق الساقين
المضمومتين ؛ ثياب ، ووضع ، أضفيا عليه بعض الإتساق لكنها فى
نفس الوقت ضاعفا من لا واقعيته .

— ماذا ، يا دون أنطونيو ؟ ألا تتناول نقودك ؟ ألا ييدوك ثمناً
طيباً ؟

— ثمن ... — إنبعث صوت العجوز أخيراً — هذا الكتاب لا يقدر
بشمن . وعلى كل حال ، ليست هذه النقود ثمن الكتاب . إتكا على
راحتي يديه المضمومتين على مسندى المقعد المزينين بالمسامير ، ونهض .

تناول أوراق العملة ببطء ، دون أن يعدّها ؛ ثم ثناها وكورها ، ووضعها في جيبه ببطء .

عاود صاحب المنزل الجلوس أمام منضدة الكتابة ، الغاصّة هي الأخرى بالأشياء ، وبالكتب ، وبالأوراق ، التي يمكن بينها تمييز عدة عدسات ذات أحجام مختلفة ، ومقياس لاستقطاب الضوء ، وحتى ميكروسكوب صغير . وفي إحدى الزوايا : الكتاب المجلّد أو المكسوّ بالرق ، والذي باعه العجوز لتوه ، والذي ، في تلك اللحظة ، ربما بسبب تأثير الضوء ، كان له نفس لون جلده ؛ اللون الخاوي لمادة كانت حية وهي الآن خاملة ، مشدودة في غلاف الكتاب ، مجمّدة في وجه الرجل ، الأكبر سنّاً من عمره .

مدّة الأخير يده في إيماءة لم تتحدد . التقط عقب السيجار الذي كان يطلق إلى أعلى ريشة صغيرة رمادية ، يوجّها نفسه تموجاً خفيفاً ؛ ثم مدها نحو الكتاب . رمشت العينان خلف زجاج العوينات ، مغزلان مُزرقان طافيان كل واحد في وعائه . مرّ ظفر الإصبع الصغير على كعب الكتاب وخدشه برفق .

— ضع في إعتبارك أنها ليست الطبعة الأساسية لعام ١٦٠٥ — أما بالنسبة لتلك الهوامش المفترض أنها بيد وخط ثر بانتس نفسه ، فعلينا أن نتحقق ، علينا أن نتحقق . إذ لا يمكننا إثبات أصالتها بمجرد تخمينات بسيطة وقد شرحت لك بالفعل نظريتي حول احتمال أن يتعلق الأمر بخدعة لعشاق الكتب قليلة الخبرة . أعرف شيئاً عن ذلك . وأنت نفسك لم تستطع فيها . إن هذه النسخة ...

لكن الزائر كان قد إنصرف ، دون وداع ، ودون أن يدير رأسه ،
ودون أن يغلق الباب .

قال صاحب البيت بعادة الرجل الوحيد في التحدث بصوت مرتفع
مع شخصه الآخر - لقد إستغرق منى زمناً ، لكننى جعلته يستسلم في
النهاية . هل ظننت أنك ستفلت ؟ الشئ الوحيد الذى يدهشنى هو أنك
إستطعت المقاومة كل هذا الوقت ... - إستدار مرة أخرى إلى الكتاب
واستغرق فيه بضع لحظات ، متأملاً . بدأ يسعل سعالاً مشروحاً لمريض
بالربو . نهض ليغلق الباب ؛ لكنه كان ينضح بالرضى ؛ رضى يكاد
يكون حاقداً . عند مروره من الضوء إلى الظل ، أشع خذاه المتهدلان ،
الأجردان مزاجاً طفولياً ذابلاً . تقدم وهو يحك بإصبعه الصغير البقع
الصلبة المبعثرة للحية التى ترقش اللغد الذى يتهدل على العنق الاجرد ،
المغلق بزر من النحاس ، دون رباط عنق .

دخلت في هذه اللحظة من الشارع فتاة نحيلة وطويلة ، تصحبها
أخرى . حياء صاحب المنزل الأخيرة بمودة زائفة .
- هل ستبقين ، يا أوتيليا ؟

- لا أدري ، لا أدري ، يادون خوسيه ماريّا . لم أقرر بعد - قالت
الفتاة ذلك باللهجة الجديدة التى لم تلتصق بصوتها فقط بل بحركاتها
كذلك .

- إبق ، فالبلد يفرغ من السكان .

وتوجه إلى الأخرى متظاهراً بضيق من يُعد مفاجأة ليست سارة بوجه
خاص :

— دليرا، يجب أن أتكلم معك .

تبادلت الاثنتان النظرات بسرعة ، خلف ظهر صاحب البيت الذى إختفى مرة أخرى . تهاوت المدعوة أوتيليا فوق أريكة ، بينما وضعت الأخرى كتبها وحافظة المدرسة فوق منضدة كتابة مزينة ودخلت وهى تفك أزار المعطف الجلدى . كانت حركاتها حركات عين تطرف لتعود نفسها على تضاؤل الضوء ؛ ولابد أنها تمثل تعبيراً عن كبح حالتها المزاجية : جهداً لضبط نفسها على مستوى جويعوقها ، و يضايقها بعمق .

— أنا كذلك يجب أن أتكلم معك — قالت ببعض العجلة ، محاولة أن تبدو هادئة ، واثقة من نفسها .

— فيما بعد ، فيما بعد — قال الآخر ، مستغرقاً فى شؤونه — أتعرفين النبأ العظيم ؟

لم تفعل سوى أن قوّست حاجبيها ، وهى تخلع المعطف . فألقى هو بمفاجأته المسرحية ، نافخاً صوته :

— باعنى أو ثونا لتوه الكيخوته الشهير .

— مسكين — غمغمت الفتاة لنفسها ، متنفسة الصعداء بعض الشيء .

أجابها — هذا كل ما يخطر لك أن تقوليه ؟ مسكين لماذا ؟

— أنت تعرف كل ما يعنيه ذلك . فلا تصنع الجهل .

— لست أتصنع الجهل . على العكس ، فإننى أذكر حدثاً بطريقة

موضوعية كما تعودت أن تقولى . والحدث الملموس هو أن أنطونيو أوثود قد إستسلم للوى ذراعه فى النهاية . باعنى الكتاب ، رغم أنه مازال متكبراً كما كان ... — عاود السعال ؛ دفع عقب السيجار فى الطفاية ووضع فيه قطعة ورق محبب بدأت تطلق بصوت خافت مطلقة رائحة أزوت نفاذة . صنعت الفتاة حركة تدل على الاختناق .

— لا أدرى لماذا لا تخرج مرة وتدع الهواء يدخل هذه المقبرة . صوب إليها العوينات ، دون أن تطرف عينه .

— تعرفين أننى لا أحب الخروج . ففور أن يخرج المرء يفقد حرته . ولست أحب أن أعتمد على الآخرين . وعلاوة على ذلك ، فلست بحاجة للخروج من أجل عملى . إذ يحضرون لى الأشياء هنا . أمرطيب أن يحضروها إلى هنا ؛ إذ يكون باستطاعتى الإختيار ، وفرض الشروط . مثلاً فعلت منذ برهة مع أوثونا .

— ليس البيع والشراء كل شىء .

— بالطبع لا ، بل يجب كذلك أن أعتنى بالتهابى الرئوى . فالبعض يحسون باقترب الشتاء فى الروماتيزم ؛ أما أنا ففى الربو . وهاهى تغيرات الحرارة المفاجئة ، وتيارات الهواء ، تجعلنى مرة أخرى فى حالة بائسة .

— ليست تيارات الهواء هى ما يدمر التهابك الرئوى ، بل التبغ ، وهذا الهواء الفاسد ...

— قلت لك — قاطعها — أن أوثونا قد إستسلم أخيراً بالنسبة

للكتاب ، لكنه ظل متمسكاً بتعاليه . لا أدري كيف تماكنت نفسى فلم أقل له ما فى جعبتى ولوجاء ذلك متأخراً أربعين عاماً . كان اليوم هو اللحظة المناسبة ، وتركته يهرب كأننى أحق .

— من فضلك ، يا أبى ! ها نحن نعود إلى نفس الموضوع . لقد صنعت من هذا الأمر فكرة متسلطة مصطنعة . أرجو أن تفهم ما أود قوله . لقد تأكد أن الربومرض نفسى ، أكثر مما هو أى شىء آخر .

— دعى ربوى فى سلام . باستطاعتك أن تظنى ماشئت . لكننى راض . وليس فقط بسبب الكتاب . كنت سأصبح راضياً حتى لو كانت تلك الهوامش أكثر الاشياء مدعاه للشك فى العالم . لكنها ليست كذلك . لم أشك أبداً فى صحتها . فلدى كل البيانات عن هذه النسخة . حينما أعارنى إياها أوثونا لبعض الوقت ، اجريت عليها مختلف التحليلات . أشعة إكس ، كربون ١٤ ، تزييف الخطوط ، كل الضمانات . حتى ذلك الخطاب من مينيدث بيدال الذى يؤكد إفتراضاتى . انها جوهرة أصيلة مثل حبة عنب قطفت لتوها . اللعنة ... لابد أنها تساوى ثروة !

— وإنزعجتا منه مقابل لاشىء ، إليه كذلك ؟

— أعطيته أكثر مما يستحق مقابل كبريائه ، مقابل الحقد الأصم الذى إختصنى به خيال المآته ذاك طوال نصف قرن . يالللصفاقة ! ظل هنا دون أن ينظر إلّى ، وجعلنى أحس بتفوقه ، بترفعه عن التعامل معى . بدالى أننى أراه مرة أخرى مثلما فى ندواتنا فى مقهى الكولونىال ... — مط شفته السفلى بإحتقار ومخصص بها مرة

أومرتين — نفس المشقف المتأنق الذى كان ينظر إلينا جميعاً من فوق
كتفه ...

إنتهزت فرصة موجة السعال الجديدة :

— سأهتّم بأوتيليا .

خرجت جاذبة المعطف وأغلقت الباب وراءها . نهضت الصديقة
ومضيتا إلى المطبخ .

— سأعد كاكاو . أكاد انهار .

— هم ... كاكاو ! — قالت متشممة الهواء — مثلما كان الحال
حين كنا نقتل أنفسنا فى الامتحانات . لترا وراء لترا حتى
الفجر .

لم يبد أن دليرا سمعتها وهى تتحرك آلياً أمام الصوان المسودّ من
الدخان .

— فى البداية ظننت أن العجوز سيحدثنى عن خوليو . ظننت أن
أحدًا قد نقل له الحكاية وأردت أنتزاع المبادرة منه . كنت على وشك أن
أقول له كل شىء .

— ثم ؟

— إنذار كاذب . لم يكن ثمة سوى مرارته الابدية من البروفيسور
أوشونا ، التى وجدت الآن خاتمتها المتوقعة : شراء ، أو بالأحرى نزع
ملكية تلك النسخة الثمينة للكيخوته التى لم يرد أبداً أن يبيعها بمال
الدنيا ، والتى إنتزعها أبى منه لتوه مقابل درهمات .

— قيل لى أن عائلة أوثونا فى حال بالغة السوء .

— فى قاع البؤس . إن مايفعله أبى مع هؤلاء البؤساء لا يوصف . لقد طفح الكيل . إن أستاذ الأدب السابق لم يعد حتى ولا ظل ما كان ؛ لن تعرفه إذا رأيته .

— وألبا ؟

— من سىء إلى أسوأ . أو بالأصح ، ما أدرانى أنا . فعند هذا الحد ، لا يدرى المرء ما الأفضل وما الأسوأ : أهو أن يشيب المرء مثلى فى هذه الحياة التى تبعث على اليأس أو أن يتحول طفلاً مثل ألبا يجلس فى هدوء فى عربة الأطفال ؛ الرجوع إلى البيضة ، مثلما يقول خوليو . لدى أقل سهو من والدها تهرب منه بحثاً عن طائرهما الطنان الشهير ، يتبعها الصبية الوقحون وحتى الكبار ، الذين يتندرون منها و يطلقون نكاتاً سيئة .

— أتذكرين أنها كانت أكثر من فى الفصل تفوقاً حتى مرضت ولم تستطع مواصلة الدراسة ؟

— ليتك رأيته . تزداد جمالاً . رقيقة ، شفافة ، مثل مريضات نلينوكيميا . « أوفيلياى المسكينة ، التى ستموت منى يوماً غريقة هى الأخرى » ، هكذا قال لى البروفيسور حين صادفتها ذات مساء . كان يحضرها وقدمهاها متسختين بالطين . كان قد ظل يهيم على وجهه طوال المساء على شاطئ الخليج ، وفى أعماق حى الكابيلدو . إقتربت منى ألبا بعينيهما الهاديتين وقالت لى بصوت خفيض ، وهى تضع فى كفى خفية طائرهما الطنان الحفى : « إعتنى به من أجلى . اليوم لا أستطيع حمله إلى المنزل لأن أبى متضايق . لست بحاجة إلى اطعامه أو وضعه فى

قفص . لن يكلفك جهداً . ليس عليك سوى أن تنظري اليه طول الوقت وسيظل ساكناً في الهواء يأكل حبات الضوء ... » وبدأت تهدده كما لو كان الطائر الطنان في يدي حقاً . شيء يمزق القلب !

عند إشعال الموقد ، سحبت دليراً أصابعها بشدة وأخذت تمصمصها وعيناها ممتلئتان بالدموع .

— لسعت نفسك ؟

— قليلاً .

هزت الزائرة شعرها وظلت ناظرة أمامها .

— لا تبقى يا أوتيليا . عودي إلى بو ينوس آيرس بأسرع مايمكن . هنا سننتهى جميعاً إلى الجنون . إنه مثل عدوى بطيئة . حياة مدفونين أحياء لايمكن الهروب منها .

— حسناً ، لا تكتئبي هكذا ، ياعجوزتي الصغيرة . فالأمر لا يستحق . الحال سواء في كل مكان — قالت أوتيليا في لهجة مرحة قسراً — يجب كذلك النظر إلى الجانب الطيب للأشياء .

— لا أدري ماذا يمكن أن يكون طيباً هنا .

— تصوري ، لقد سلتنى أسونثيون كثيراً . مازالت نفس المدينة القديمة تحت حلة قشبية من الشوارع والمنازل الجديدة ، والسيارات من آخر طراز . الريح الشمالية مازالت تهب بنفس الطريقة . والقمر ، وأشجار الياسمين ، والأغنيات الليلية ، كل شيء مثلما كان . المرة الماضية ، بينما كنت أتمشى هناك معجبة بأعاجيب سماننا المرصعة

بالنحوم ، التى ليس لها نظير فى العالم كله كما هو معروف ، صادفت
هاراً جالساً فى منتصف الشارع . إقتربت منه فلم يتحرك . نظر إلى
بعينه الكبيرتين النديتين . « إن لك عينا إنسان ، أيها الحمار الصغير
الصعلوك » ، قلت له ذلك وأنا أربت على أذنيه اللتين إهتزتا قلقتين ،
كأنه يخشى أن يسمعونا . تماماً مثل الناس فى شارع بالما . البلد يتقدم .
حتى الحيوانات تصبح آدمية . هذه هى الاشياء التى تسرى عنك وتعيد
لك مرحك .

لا تمزحى ، من فضلك .

— يا عجوزتى الصغيرة الحبيبة — إحتضنتها — إعذر ينى . إنك
حساسة جداً . حدثينى عن شؤنك . قلت لى عن علاقتك بخوليو .

— سأمضى معه .. هذا كل شىء .

— أخيراً أسمعك تتحدثين بعقل ، يا دلى * . هل ستقولى هذا

لأبيك ؟

— لم أعد أنتظر منه شيئاً . ولا حتى تعاطفاً . إنه جاف تماماً ،
حرقته كراهيته ضد الجميع وضد كل شىء . إنه هناك ، لكننى
لا أتحمل المزيد . سأكمل الثلاثين عاماً ، يا أوتيليا . إننى مفعمة
بالقرف ، وباليأس . ولولا خوليو لكنت قدمت . إنه الشىء الوحيد
الباقى لى . سأمضى معه إلى أى مكان .

— وماذا تنتظرين ؟

دلى : تدليل دليرا — م

— لديه عرض غامض لمنصب جامعى فى قرطبة . سأرى هل
أستطيع الحرب . حتى لاينتهى كل شىء بالنسبة لى إلى طائر ألبا
المسكينة الطنان .

كان عطر الكاكاو المنعش قد ملأ المطبخ . ومن كوة السقف تدخل
موجات متمهلة بلون النحاس الداكن سرعان مايقتم لونها . بدأت ترشفان
فى جرعات بطيئة ، دون أن تنظرا إلى بعضهما .

— دليرا ... دليرا! — نادى الصوت المشروح من الداخل .
— ماذا يريد هذه المرة ؟

بذلت جهداً لتنهض وذهبت وكتفها متهللان وذراعاها ملتصقان
بجسدها . وفى الداخل استمر العويل الأصم .

— ماذا حدث — قالت عند دخولها .

— سرقتى ... سرقتى ... !

— لكن من ؟

— ومن يمكن أن يكون ؟ عجوز الشيطان ذاك !

ظلت دليرا نافرة ، غير مصدقه .

— غشنى ال ... ال ... ! منعتة المهانة من العثور على صفة فاحشة

بما يكفى .

— لكن ، ماذا صنع لك ؟

— أعطانى بدل الأرنب قطعة — خبط الكتاب كأنه يصفعه —

أنا ... ، أنا ! أتدركين ؟ حمل إلى هذه القمامة ، مخطوط تافه مجلد ، على

أنه الكيخوته . وأنا ، ما أغبانى ! ، اعطيته النقود دون أن أتحقق .
غشنى ، سرقنى ! سأرسله إلى السجن ... ، ماذا ظن نفسه !

— لا تنفعل هكذا . من المحتمل تماماً أن يكون قد أخطأ . لا تنس
أنهما كانا كتابين بتجليد متماثل . جنباً إلى جنب فى الصوان . أراد أن
يأخذ أحدهما فأخذ الآخر . البروفيسور أوثونا لا يستطيع أن يصنع شيئاً
سيئاً عن قصد . لا تنس أن ذلك العجوز المسكين يمر بأيام حالكة
السواد .

— دائماً تبحثين عن أعذار لأعداء أبيك !

— البروفيسور ليس عدوك .

— إنه عدوى . لقد غشنى ، سخر منى .

— سيحضر لك الكتاب فوراً أن ينتبه لخطئه .

— أريدك أن تذهبي فوراً إلى منزله وتطالبيه بأن يحضره .

— حسناً ، سأذهب ، وبالمرّة سأحمل له هذا .

— مستحيل ! بإمكان ذلك العجوز أن يفعل أى شىء . ليست

لديك أدنى فكرة عن أمور التجارة وعن هذا النوع من الناس . هذا
الكتاب سيبقى هنا ، رهينة ، حتى يحضر إلّى الآخر و يقدم لى تفسيراً .

خرجت دليرا .

— إنه بين يديّ الآن ! ... — مضى يغمغم منتفخاً فى كرسيه من

الحنق — سيسمع منى ذلك الدعى ! سأغمره بالخزى ! سيعلم بذلك
الجميع !

شرع يتصفح الكتاب بانفعال ، مبللاً أطراف أصابعه باللعباب ؛ نوع من اللازمة اللاإرادية المرتجفة إنبعثت في داخله ، لاغية غيرها ، ومتجاوزة كذلك رغبته في تمالك نفسه . لاحظ أن هذه الحركة لطالب سىء التربية كانت تحنقه أكثر لأنها ، دون أن يستطيع تجنبها ، ساهمت في احباط الهدوء البارد والمنهجي الذي يحتاجه ليسيطر من جديد على الموقف و يستخلص منه أفضل نتيجة ممكنة .

تعرف على الخط الدقيق الجميل لأوثونا فيما بدا أنه مخطوط رواية أعاد قراءة العنوان . الحروف المائلة المرسومة بجرات قلم منفصلة ، ونشطة لكنها متألفة ، كانت تقول : السجين .

— أنطونيو أوثونا ، الناقد وكاتب المقالات الفاشل ، روائي فاشل كذلك ! — غمغم — فاشل مرتين ، فليس ثمة فشل أكبر من مخطوط غير منشور . أنا على الأقل نشرت كتاباً ... — تجعدت الشفتان النحيلتان في إمتعاض .

حل حب استطلاع مرضى محل حنقه . وبينما هو ينتظر عودة ابنته ، إستغرق في القراءة . أدرك الموضوع منذ الصفحات الأولى . كانت سيرة ذاتية سجل فيها أنطونيو أوثونا الأحداث الرئيسية في حياته .

حين بلغ فصل مقهى الكولونيال ، جمدت العدسات التلسكوبية على الصفحة . ثم بدأ يقرأ الفصل بصوت عال .

« ... دخلت وقد أغرقنى المطر ، خلعت القبعة العالية قبل أن أعلقها على الشماعة واقتربت من الحلقة . بالإضافة إلى فونيس كان

هناك زملاء كل مرة، لوبيث ديكود، وبانه، وجودوى،
ودومينجيث .

« — يقولون أنك لا تتفق مع كتابى — بادرنى فونيس فور أن رآنى .
« لم أرد عليه على الفور . خلعت القفازات ببطء ، وسحبت كرسيًا .
حدقت فى وجوه الآخرين ؛ بدا أنهم ينتظرون شيئاً منى ، بين عابثين
وساخرين .

« — لماذا لا تتفق ، إذا كان من الممكن معرفة ذلك ؟ — أصر
فونيس ، غامراً الآخرين .

« — لست أوافق مع مؤلف الكتاب — أجبت .

« — لا تتلاعب بالألفاظ — قال ، وسخرية غامضة تجاهد لإخفاء
إحتقاره — أسمح بأن تنتقد أفكارى ، أما ...

« — ليست بالضبط أفكارك — قلت له ، وأنا أحك القفازات المبتلة
فى ركبتى لأفرغ بطريقة ما الالهانة الصماء التى أثارها وقاحته —
كتابك منسوخ من أوله إلى آخره .

« أصبح الصمت كشيئاً فى الأنفاس التى سرعان ما صارت
غضروفية وجعلته بعض الابتسامات المكتومة أكثر إلتباساً . الآن أصبح
لدى قبيلة مثقفى الكولونىال ماتسلى به .

« — إنك صديق سىء ، يا أوثونا ! — إلتعنت العينان القصيرتا النظر
بغضب لا تكاد تما لكه — كيف تتجاسر على تشهير على هذا النحو !

« — إنك لم تفعل سوى ترجمة وتنقيح كتاب كابانيس جزئياً — لم أرد أن أشعره بالمرارة لكنه يدفعني لوضع الأمر بوضوح — إن أى شخص قرأ العلاقات بين الطبيعة الفيزيائية والروحية للإنسان ...

« — سيكون عليك ان تثبت ذلك ! — قاطعنى بطريقة بلغ من عصبيتها أن جعلت العوينات تقفز . إنحنى لبحث عنها متحسناً ، لكن لوبيث ديكود كان قد إلتقطها وناولها إياها بحركة متأنق . وضعها فونيس وكرروهويكاد يصرخ : سيكون عليك أن تثبت إتهامك !

« — سأفعل ، وأؤكد لك أننى سأفعل بكثير من التفكير . إقرأ ملاحظتى فى الناثيونال عدد الاحد . فيها أوضح أن الشئ الوحيد الذى يخصك هو الفصل الرابع ، وهو للأسف أسوأ ما فى الكتاب . إنه تأويل فارغ لاحدى ملاحظات كابانيس نفسه ، وفيه علاوة على ذلك تلوى أفكاره حتى لايعود التعرف عليها ممكناً .

« — كل ما هناك — قال من بين أسنانه ، شاحباً ، يرتجف من الغضب — ، هو أنك دائماً تريد القاء الظلال على الآخرين . لايمكنك تحمل نجاح الآخرين ، وخصوصاً حين يتعلق الأمر بأصدقائك .

« — تعلم جيداً أن الأمر ليس كذلك ، ياخوسيه ماريا — أجبته — لأفهم لماذا يجب أن تنطوى الصداقة على مساومات من هذا النوع . الشئ الوحيد الذى استطيع أن أقدره فى صديق هو أمانته ، وليس نفاقه ، ولا إدعائه . لايمكنك أن تطالبني بأن أوافق علناً على أول خدعة

مطبوعة لك ، ولما كنت مسؤولاً عن التعليق على الكتب في الصحيفة ،
فإن تواطؤى مستحيل مرتين .

« — واضح ، أوثونا معه حق — قال خوان سيلبانو جودوى ، ليس
ليؤيدنى بالضبط بل ليزيد النقاش سخونة وينقله ، إذا أمكن ، إلى
مجال المبارزة ، المكان الوحيد ، فى إعتقاده ، الذى يجب أن تحسم فيه
كل الخلافات ، بما فى ذلك الثقافية .

« لكن لافونيس ولا أنا كنا جديرين « بساحة الشرف » ، كما لم
نكن نتجاسر على أكثر من مجرد نزاع لفظى ، وهو شئ كنت حتى
أحاول تجنبه لأن الصبى غير الناضج والمبتذل الذى كانه خوسيه ماريا
فونيس ، والذى لن يكف عن كونه أبداً حتى لوبلغ الثمانين عاماً ، كان
يبعث فى التعاطف . قال له كامبوس ثرييرا ذات مرة (إكتب
قصائدك ، لكن لا تدعها ، فالتلوث الليلى عادى فى مثل سنك وفى مثل
مزاجك الدموى ، شريطة ألا تتفاخر بها) . كذلك لم يغفر لمانويل
دومينجيث قوله ذات ليلة ! فونيس هذا يعتقد جدياً أن الأعمال البطولية
والتطهرات العظيمة تأتى بالعدوى !

« من أجل هذا كان فونيس ، الذى لانظيره ، بين أقرانه : من
أجل اشارة التعليقات والنكات . ولما كانت روح الدعابة لدى قليلة ،
كنت أعانى من أجله أكثر منه هو نفسه .

« لهذا نهضت وغادرت الحلقة تلك الليلة . وضعت القبة العالية
وخرجت الى الشارع من جديد ، بينما أثار فونيس خلف ظهرى زوبعة
من القهقهات حين قال بطريقة يمكننى سماعها :

« — باه ، أفضل ناقد وكاتب مقالات في جيله ! ليس سوى مثقف
متزمت بائس ، أحمق ومتباه !

« في الخارج ، كان المطر الخفيف لكن الكبير القطرات ، الذي
يكاد أن يكون زيتياً ، يملأ الليل . وبينما كنت أنتظر مرور عربة أجرة ،
سمعت فونيس يقول :

— إنه يعتقد أنه رفايل بارّيت آخر ، بإمكانه أن يتمتع بترف
إذلال من لا يفكرون مثله . لكنهم سينتهون بأن يجعلوه هو الآخر يأكل
ورقة الصحيفة التي تحمل حماقاته ، مثلما جعل الكولونيل خارا الفوضوى
الأسباني يأكلها حين سخر منه ذلك الأخير في صحيفته .

« — بارّيت لم يأكل صفحة الخرمينال — سمعت دومينجيث
يقول .
« — أعلم — قال فونيس — لكن بارّيت ، بالإضافة إلى موهبته ،
كان شجاعاً . أما أوثونا فمتأنق مبتذل .

« — الذنب ذنبك ، يا درفيل الآداب القومية — إستمروا دومينجيث
ساخراً — من قال لك أن تكرر هذه الأفكار العابثة حول المذهب الحيوى
مثل تلميذ مجتهد ، بينما يضج البلد بموضوعات ومشكلات هائلة وفريدة ؟
متى سنفهم أن الثقافة العالمية لا تفيد إلا إذا جعلتنا نفهم الواقع الملموس
والعنيد الذى يضغط على ضلوعنا في كل لحظة ؟ إذا استطاع هو
ميروس ، أو شيكسبير ، أو كابانيس ، أو خوان دى لوس بالوتس أن

يجعلوننى أرى وأحس فى أعمالهم بالحياة وبالعالم الآن وهنا ، فيها ونعمت . وإذا لم يفعلوا ، فإنهم براز .

« — كل واحد يفعل ما يستطيع — قال فونيس متضيقاً .

« — طبعاً — انفجر دومينجيث — لكن عندئذ يأتى متأنق مبتذل ويشبث لك أنك ناقل تافه وان لسانك أكثر جفافاً من بغاء عمتى بانفيلاروميرو .

« — مازال على أوثونا أن يشبث أن فونيس منتحل — قال جودوى بابتسامة صغيرة مشروخة — وإذا لم يفعل ، فعليه أن يطالبه فى الحال بتسوية الأمر بالسلاح .

« — فونيس لا يمكنه المبارزة — قال بانه — فهو قصير النظر . أما أوثونا فلا تمكنه قواه من أكثر من إستلال سيف من الخيزران . إلا إذا تبارزا بريشتى الإوز .

« على إثر القهقهات : سعل فونيس متحدياً :

« أراهنكم على أنه لن يجروء على نشر مقاله . فالجمعية بسوء نية شىء ، أما إثبات الجمعية فشىء آخر .

« وكسب خوسيه ماريافونيس الرهان معنوياً . فلم تنشر ملاحظتى أبداً . إذ بعدها بقليل تركت الناثيونال وكففت عن الظهور فى اللقاءات . وحين كان أحد يعرب عن إستغرابه لموقفى ، كنت أقول له أنسى أكسرس نفسى تماماً لمنصبى الجامعى ، مما لم يكن يفسر شيئاً مع التسليم بأن ملحق الأحد الهزى لم يكن ليشغلنى أكثر من ساعتين ، وأن

الندوات لا تمنع الآخرين من العمل بنشاط في جهودهم الثقافية المختلفة . كان على أن أخترع لغزاً للآخرين حتى لا أواجه لغزى الخاص .

« بالطبع ، وفي إطار كل هذا ، لم يكن الخطر يهدد فقط مكانة فونيس ، ولا تعاطفى ، ولا جُبنى . فرما كان الأهم من ذلك بكثير هو طعم الحروف الميتة الذى بدأ العالم والحياة يكتسبانه بالنسبة لى عندئذ ، الواقع الملموس والعنيد الذى يضغط على ضلوعنا ، فى بلد كان بالوعة شاسعة ومظلمة لا تفرخ فيها سوى ديدان المؤامرات ؛ شرخاً صغيراً وعقيمياً فى قشرة العالم ، لا يمكن لشيء أن يثمر فيه : لا الحياة ولا الموت .

« لكن ذلك لم يكن كل شيء .

« لم أعد لرؤية فونيس إلا بعدها بسنوات ، فى لقاء عارض لم يُرده أينا أو يدرى كيف يتجنبه .

« تحولت صيغة أنت البليغة المفروضة إلى **حضرتك** التأدبية ، مما لم يلفت إنتباه أحد ، ففى ذلك الحين كانت تقلبات التحولات السياسية قد بذرت العداء بين الجزء الأكبر من المشاركين فى الندوة . كذلك كان هؤلاء قد استبدلوا الترف شبه السطحى للأدب بأنشطة أقل تأملية . فقد وجد خوسيه ماريافونس ، على سبيل المثال ، أن الاتجار بالأراضى ، والتحف ، والطبعات النادرة أشد إثارة وفائدة من الفلسفة والسوسيولوجيا ، وكرس نفسه بحماس لصناعة (الاسطورة القومية) التى كان إزدهارها يُغزى ، للأسف ، بالتبارى ويزيد المتنافسين » .

عاود فونيس بل أطراف أصابعه بلعابه ، وقَلَب عدة صفحات
بإيماءات متشنجة .

« ... فى ختام ثلاثين عاماً ، لم أتل التقاعد المتأخر ، الذى لم أكن
أتوقعه بالطبع ، بل إعفاءً سىء التوقيت بسبب عملى (المدمر والمخرب ،
الذى ينكر كل القيم الحقّة والمعنى الحق للقومية) ، كما نص قرار مجلس
العمداء .

« وعند خروجى من السجن ، اضطرت للبدء فى بيع المكتبة بثمان
بمخس لمراوغة الجوع الذى كان الوقف عن العمل أولاً ، ثم شهور السجن
الوقائى بعدها ، وأخيراً الإفراج المشروط أو « تحت المراقبة » ، ينشرونه
فى المنزل .

« كان على أن أواصل الحياة . وزاد الطين بلة مرض إيسولينا
القلبى والتهاب الغشاء السحائى لألبا الذى إنتزع ادراكها وأغرقها فى
الهشاشة الغائمة للتخلف العقلى . كانت زوجتى وإبنتى معى داخل
جدار الكتب والاوراق وكان على أن أواصل إطعامهما ، على الأقل .
وفى النهاية إكتشفت أنه حتى ذلك لم يكن ممكناً ، إلا اذا بدأنا ثلاثتنا
فى أكل الجدار .

« محول خوسيه ماريا فونيس إلى المشتري الرئيسى لكتبى وقام
بنفسه ، وكأن الأمر يتعلق بتلك الأراضى القفر التى يشتريها ويبيعها ،
بفحص ، واختيار ، ونقل الطرود التى تناسبه أكثر من غيرها إلى منزله
خلال السنوات الخمس التى دامت خلالها تصفية مكتبة (المثقف
المتزمت البائس) .

« وهدم بقية السور موت إيسولينا ، التي داهمها الإغماء ذات مساء في الترام ، أثناء عودتها من المصحّة (عند نهاية الخط ، ذهب الحارس لإيقاظها معتقداً أنها نائمة ولم يستطع تفرّجها ثمن التذكّرة الإضافية لأنه فاجأها وهي ماضية بالفعل في الرحلة الأخرى) .

« أما فونيس ، الذي دفع مقدّماً فواتير المصحّة والجنازة ، فلم يصبر إلّا حين انقضاء أسبوع على المتوفاة ليرسل سيارة نقل لتسحب المبالغ التي تخصّه .

« لم يتبق من الجدار سوى هيكله العارى . فمع الكتب مضى الأثاث ؛ كل ميراث العمّات العجائز في مدينة بيار يكا الروح القدس . كان ما تبقى كرسي بكسوة ممزقة ، ومنضدة خشب الجوز الداكن ، وصوان ، مما ترك فراغات كبيرة مكشوفة يسبح فيها الغبار الذي تجعله الشمس يتراقص في ساعات معينة ، بينما كنت أتولى قسم بيع وشراء الكتب القديمة في المونديال ، التي أعطاني مالكة الوظيفة بدافع يقارب الشفقة .

« وأمام المنضدة ، في الصوان المغلق بالمفتاح ، كان يرقد الناجيان الوحيدان من الكارثة : هذا المخطوط الذي لم أستطع أن أضيف إليه حرفاً واحداً ، منتهياً ، مغلقاً على ذاته ، ودرة كنزى الضائع : الجزء الأول من الكيخوته ، بملاحظات هامشية بخط ثربانتس نفسه .

« كان فونيس قد وضع عينه عليه منذ زمن طويل ، وبعد وفاه إيسولينا ، حمله إلى منزله ليتأكد هل كانت تلك الهوامش أصيلة أم

مزيفة . شىء عبثى . كان النظر إليها كافياً لمعرفة ، دون أدنى شك ، أن يمين الأكتع * قد كتبها هناك ، حرفاً حرفاً ، وأن روحه قد هبت عليها . وإذا كان فونيس نفسه مهوراً ، فلا بد أن فى الأمر شىء .

« فى تلك النسخة كانت تكمن بعض عناصر عمل ثربانتس المستقبلى : بعض المفاهيم التى كانت ستظهر بعدها فى مقدمة الجزء الثانى ، والتى رد بها ثربانتس على شتائم مؤلف الكيخوته الزائف : ... لوتصادف أن عرفته ، فأبلغه من طرفى أننى لا أضمر له ضغينة ؛ فأنا أعرف جيداً ماهى غوايات الشيطان وأن إحدى أكبرها هى إيهام رجل بأن فى مقدوره تأليف وطبع كتاب ...

« وربما كذلك مسودة تلك العبارات الغامضة التى كانت ستظهر فيما بعد فى إهداء كتاب Persiles إلى الكونت دى ليوس ، كما كتبها قبل وفاته بأيام معدودة ، لكن حياته كانت قد إنصرفت بالتأكيد قبل أن يكشف عن معناها النهائى : ... الوقت قصير... الأشواق تنمو... والآمال تتضاءل ...

« فى آخر مرة يزورنى فونيس ، بصحبة إبنته ، عاد يكرر :

« — متى تبيعنى الكيخوته ؟

« آه ، ذلك ليس للبيع — أخبرته دون أية نوايا مجازية ، فلم أكن أفكر فى الواقع فى أن أنتزع منه سوى مايسد الجوع والضرورات .

« — إننى على إستعداد دائماً لأن أدفع لك ثمناً مجزياً .

الأكتع : يقال على ثربانتس وكذلك أكتع ليبانتو ، لأنه جرح يسراه فى معركة هناك —

« — لكن ، يا أبى — تدخلت دليرا فونيس — ، لا تصر . لابد أن لدى البروفيسور سبباً يجعله لا يريد الانفصال عن ذلك الكتاب .

« — نعم — قلت — ، الحقيقة أننى لا أستطيع الانفصال عنه .

« نظر فونيس إلى إبنته بقسوة ؛ ثم إستدار نحوى وكرّر :

« — لكن ، لماذا ؟

« — لأن ... — تلعثمت ؛ لا أدرى تماماً كيف أوضح له الأمر — إنه كتاب قد أصبح تحت جلدى ...

« — مهلاً ، يادون أنطونيو — قال فونيس — إنك دائماً تمازح .

« — ربما كانت نفس حالة سميتى فى مسرحية شيكسبير ... — دائماً هوسى بتكرار العبارات ، بإقتباس المشابهات والرموز من الكتب ؛ يقولون أن المرء هو ما يفعل ، وأنا لم أفعل فى حياتى سوى القراءة .

« — لست أفهم — قال فونيس وهو يشك أننى ربما أسخر منه .

« — حالة أنطونيو ، فى تاجر البندقية . فقد طالبوا سميتى برطل من اللحم يجب أن ينتزع من أقرب مكان إلى القلب . فجاءت بورسيا الجميلة ... — وتوقفت لحظة ، فن الداخلى جاء العويل للمنسل لألبا ، الذى خمد على الفور — تحدثت بورسيا عن قطرات الدم الشهيرة التى لم تكن واردة فى العقد . سفسطة قانونية ، خدعة مراوغة أفسدت على المرابى تجارته .

« — لست أدرى إلى ماذا تريد أن تُلَمِّح — قال فونيس ، محنقاً .

« — لا أريد التسليميح إلى شىء — قلت — إننى أحاول توضيح

حقيقة . ومن ناحية أخرى فإن ذلك حدث منذ زمن طويل ، ولم يجز سوى في مخيلة شاعر عظيم . وقد فعله ليسلى الناس الذين يرتادون مسرحه عاد غناء ألبا السخيف ليرن في أعماق المنزل . وسرعان ما توقف فجأة ، كالمعتاد ، ثم جاءت الضربات الصماء لقبضتها على البوابة الحديدية . إستدار فونيس وإبنته ناحيتي .

« إنها ابنتي . تصبح هكذا حين لا يأتي طائرها الطنان .

« نهضت دليرا فونيس ببطء وأطلت من النافذة المؤدية إلى الحديقة التى غزتها الأعشاب . واكفهرت ملاحظها . بالتأكيد رأت شعر ألبا الأشعث يتحرك خلف ياسمين الإفريز .

« — إحزم أمرك — قال فونيس — وتعال لزيارتى . مع الكيخوته ،

هيه ؟ ... »

كانت سحنة فونيس المهذلة شديدة الشحوب ، تتناثر فوقها البقع الداكنة بحجم حبة الفاصوليا ، وكان الربو يضع في حنجرتة حشرجة غريبة كأنها شخير يعشش في الغضاريف . سقط الشعر المستعار .

— الأحقق البائس ! — قال ، وهو أكثر إرتياحاً — لم تقم في حياتك بشيء سوى بدور المهرج الأنانى ! أنطونيو أوثونا ، روائى ... ها ! أوكد لك ، أننى لم أتوقع هذه النكته التى تكاد تجيء بعد وفاتك . خلال برهة وجيزة سأستطيع أن أجعلك تدفع ثمن ذلك الإتهام البالى منذ أربعين عاماً في مقهى الكولونيال ، حين أردت أن تحيلنى هزواً أمام زبدة عقول البلاد . لكن ذلك لم يكفك . أردت أن تتعقبنى حتى النهاية بنفاقك ،

بنيتك السيئة التى لا تنفذ جعبتها . اننى على يقين من أنك حين كتبت ذلك لم يهملك تعرية حياتك بقدر ما همتك تعرية حياه من كان لنا سوء حظ التعامل معك ؛ وخصوصاً حياتى . لن تعود هذه الوشاية الحقيرة للخروج من هنا . سأدمرها فى حضورك . طاش سهمك ، يا أنطونيو أوثونا ! ...

قلوب الصفحات ، وهو يكاد يبصق فى أصابعه ، حتى توقف عند الصفحات الأخيرة .

— لقد وضعت كل شىء هنا ، بتفاصيل أكثر أو أقل . لكنك لم تكتف بشخبطة ماضيك كمن يتذكر حلمًا سيئًا . فقد وضعت كذلك خاتمة تقص فيها الأحداث التى لم تقع بعد ، بما فى ذلك موتك . فى غرورك الشيطانى أردت أن تتذكر المستقبل . ذلك كان أحد موضوعاتك الأثيرة ، ولعلك بالزمن الذى يعص ذيله ، وهو مأخوذ عن الفلاسفة قبل سقراط ، وعن لاو—تسو ، وعن آخرين كثيرين ، لأن الأصلة ، يا عزيزى أوثونا ، ليست موطن قوتك .

قرأ ، « ... ولما عرفت أن كل شىء قد إنتهى ، تناولت المسدس ومضيت إلى البوابة الحديدية حيث كانت ألبا تنادى طائرها الطنان . الآن لن أعود لسماعها ، وستخرج هى لتهم طوال المساء فى الشوارع حتى تبلغ زحام الميدان .

» إرتد الانفجار فى وعيى دون ضوضاء ، كارتطام بذرة بوسادة صوفية . نفذت الطلقة فى جهتي مثل كوكب هائل تحوطه الهالات اللامعة . لكن الألم كَفَّ فى الحال . وعلى الفور بدأ السكون . جاءت

ألبا ، إستمعت إلى هدهدتها وفهمت حكمتها . ثم مضت وعادت يصحبها شخص آخر ، بدأ فى البكاء حين رآنى . لكن كيف أشرح لها أننى كففت عن المعاناة ؟ واصلت ألبا غناءها . فقد فهمت . بللت إصبعاً من جبهتى ، ونظرت إليه ثم قالت لمن كانوا يتجمعون فى الفناء أن طائرهما الطنان قد جاء . خرجت تحمله فوق إصبعها أوفوق الهواء الذى يعلو إصبعها . تبعها قوم كثيرون وهم يصيحون و يضحكون . كان جميلاً أن أرى ذلك أيضاً بعيون جديدة ، إختفت منها كل ذاكرة السوء ... »

— أنطونيو أوثونا ، عَراف ! ياللفصاقة ! إنها مهزلة ، دعابة سمحة ، مليئة بشعور مائع غريب على أسلوبه ...

هاجمه السعال ؛ فأشعل فى طفاية السجائر نصف رقيقة أخرى من ورق الأزوت ، وظل زائع البصر ، يستنشق الدخان الكثيف الذى يدخل فيه و يعود للخروج وقد تغير لونه مثل نفسه .

— لعل هذا المحتال المتهور لم يعيش وهو ينسخ حرفياً فى الواقع مسودة سيرة ذاتية يتخيلها هو . على آية حال ، لن يجرؤ على تقديم نهاية منسوخة من احدى ميلودرامات بارجاس بيلا تلك ، التى لم يعد يقرؤها حتى الكلاب . لنر... لنر— هتف بعد وقفة ، وكأنه قد إكتشف لتوه مفتاح اللغز كله .

عاد من جديد إلى الصفحات السابقة ، كأنه خنزير يجرى ينخرين الدخان الحجرى .

— لا يذكر شيئاً هنا عن بلاغاتى الخاصة التى جردته من منصبه

الجامعى . إذن فأوثونا بجهلها . إنها الخيط الذى يفسر كل الغموض .
كيف لم يفكر فيها !

أغلق فونيس الكتاب ووضعه على المنضدة .

— باه ، نكته جنائزية أطول مما ينبغى . بديهى أن المفكر الليبرالى
العجوز قد جُنَّ مثل إبنته ... — ثئاب فاغراً فاه حتى بانت لهاته .

نظر إلى ساعة الحائط ، فانتبه إلى أن الوقت يقارب منتصف الليل .
طفى تعبير الورع الراضى فوق الملامح الرخوة .

— وتلك لم تعد بعد . انها تعطى نفسها الكثير من الحرية مرة
واحدة . سيكون على أن اعيدها إلى الطريق القويم .

أشعل سيجاراً آخر ونفث بضع نفثات من الدخان كأنه يريد
إفلات عصبيته . أمسك السعال بخناقه من جديد . حرق فى لهب
السيجار بقية ورق الأزوت من أحد أطرافه ، ورويداً رويداً نعس
بذلك النوع من الشخير العميق الذى بدا أنه يتدحرج فوق صخر .

شاحبة ومتهدلة ، تجر جر قدميها ، وكثفاها ، وذراعاها ساقطين
تماماً ، دخلت دليماً .

نهض فونيس قافزاً ، ماسحاً وجهه براحتى يديه وكأن خيوط
العنكبوت تغطيه . وضع عويناته ونظر إلى الساعة .

— أخيراً تذكرت أن تعودى . أين كنت ؟

لم تجب على الفور . أخذت تشعل كل الأنوار بثقل يكاد يكون

طقسياً ، وكأنها تشعل كل شموع كنيسة واحدة فواحدة . وظل فونيس ينظر إليها دون أن تفارقه حيرته .

— حدث ما كان يجب أن يحدث — قالت ، وحتى صوتها كان مختلفاً .

— لكن ، ما الذى حدث ؟

— أبطأت دليماً كثيراً فى الرد . تهاوت على أريكة وغرست وجهها فى وسادة . جاء صوتها من بعيد ، أصمّاً ، مهزوماً ، دون أمل :

— إغتصب بعض الجنود من فصيلة الحراسة ألبا فى حُفْر منعقدة لا تشاكاريتا ... بينما كان البروفيسور هنا ، هربت من المنزل ... ووجدوها هناك ، شبه ميتة ... كان علينا أن نبحث عنها فى كل المدينة ، نحن الثلاثة وحدنا ، البروفيسور ، وخوليو ، وأنا ... لم يكن أحد يعرف شيئاً ... لم يرد أحد أن يساعدنا ... الأبواب والنوافذ أغلقت أمام ندائنا ... حملناها إلى قسم الإسعافات الأولية ... بعدها اختفى البروفيسور هو الآخر ... ووجدناه مخموراً تماماً فى أحد المقاهى ... ذهب خوليو ليلفج البوليس عما جرى لألبا .. فسخروا منه فى وجهه ... سبّهم جميعاً ... فاعتقلوه .

نهض فونيس بكثير من الجهد ، وهويئى من تقلص ساقيه ، وبدأ يتمشى بخطوات قصيرة متفاوتة ، ويداها خلف ظهره ، كأنه يفتش عن أثر على الأرضية . وللحظة ، لم يكن يُسمع سوى لهاته ، وطققة البلاط . وفى الخارج ، فى مكان ما ، بدأ الضوء ينبجج .

ظلت دلييرا مستلقية على الأريكة ووجهها مدفون في الوسادة ،
وكأن فوقاً ساكناً ينتابها من الداخل . ثم تمالكت وبدأت تدور في
لغرفة بنظرة عينيها اللتين كأنهما إحمراً بفعل الحمى ، والمشتتين في نقطة
متحركة تنتقل في الهواء .

نهضت قافزة ومضت إلى النافذة . هناك بدأت تضرب يديها
الزجاج بين الستائر ، بلهفة متزايدة لكن في نفس الوقت بنعومة تتزايد
كل مرة ، برقة هاذية .

تابع فونيس ، منزعجاً ، حركات إبنته الغريبة :

— ماذا بك ؟ عم تبحثين ؟

بدا أنها لم تعد تسمعه . ظلت تملس بقوس يديها بين طيات
الستائر ، وهى تحك بنعومة الزجاج الذى كان الليل لا يزال يخيم وراءه
وفى أطرافه رجفة بریق شاحب .

إقترب منها فونيس وأمسكها من كتفيها :

— لكن ماذا دهاك ؟

لم ترد دلييرا . كانت يداها مطويتان على صدرها وبدأت تهددها
برفق ما بداخلها .



جسدٌ مُسجى

ممدداً في صندوقه ، على ضوء الشموع ، يرقد وساقاه متباعدتان ، شديد الهدوء . أقلُّ سُمرَةً من المعتاد بقليل ؛ مفعم بتلك الثقة العمياء التى يتمتع بها الموتى حديثى الموت حين يحسون أنهم لم يعودوا يشكلون جزءاً سوى من أنفسهم ، يستوى عندهم ستة ونصف دسته ، ذثار المكابى * ومهاميز الوزير الأعظم * . وجهه بلاماضٍ أعيد إلى الماضى ، آخر وجه للعجوز . عبر الجفون المجددة ، شق عكربلون بطن السمك . ينظر وكأنه لا ينظر ، ويعرف الجميع ماذا يرى . بين التراتيل والابتهالات نحنى فوق ذلك الضوء الجاف الذى يخرج من عينيه ؛ يظل موجوداً بأكمله ، لكنه لم يعد هو بل ذكراه ؛ تتحول سحنته بسرعة إلى سحنة مجهولة لغريب ينام فى ذلك القارب المنقوش كله ، الأشد أناقة من أن يبحر فى رحلة بهذا البؤس . إنظر كيف يبلغ به العناد أن يموت فى ليلة كهذه . لكنه كان كذلك دائماً ؛ كان ممن يعيشون منتظرين أن يحدث ما لا يمكن حدوثه ، ومن المؤكد أنه أخذ عن مُرتل الكنيسة القوي

* المكابى : أحد ملوك اليهود من سلالة المكابيين التى أسسها متتياس — والوزير الأعظم : رئيس الديوان التركى .

بأنه ليس ثمة موت لأن ما كان من قبل قد مضى . إنه ، دون لف
أودوران ، ذلك الرجل الذى ترك لنا جسده كمن يهدى شيئاً لم يعد
يحتاجه .

مع تطويق الجند للقريّة إنتظاراً لمعركة الفجر ، قليلون هم من
تشجعوا على المجيء . بضع عجائز من الرجال والنساء ، صبية وكلاب
أهاجتهم وأفزعتهم الطلقات التى تحيك الليل بين آونة وأخرى . وصل
أناس السيرك لتوهم ؛ و يتهاون للجلوس فى الأركان وكأنهم يسIRON
الآن جميعاً على السلك بخطوات ضيقة . شاحبون . حائلو اللون ، غريبون
مرتين . الآن ، بدون لحيتها المستعارة ، تملك زوجة صاحب السيرك
وجهاً ذكورياً محدد الزوايا . نحاول أن نفسح لهم مكاناً ، لكن الدار
صغيرة والليلة باردة . بعث وجودهم فينا نوعاً من الخمول . زوج
الأقزام ، شابكين أصابعهما مثل عروسين فى بطاقة بريد ، يتأملان
الميت ؛ وذقناهما تحكّان متطفلتين حافة الصندوق . بجوار الباب ،
اشتسكت ماريّا دومينجا أوتاثو ، صاحبة دار البغاء ، فى حديث مع
مروّض الوحوش الذى تلمس رأسه السقف ؛ شعره أشقر وسبط و يكاد
يماثل فى الطول خصلات ماريّا دومينجا ، الزرقاء من فرط سوادها ،
والتى تبلغ منها الخصر . ابن عمى ، خوان دى ديوس ، يوشوشنى بشىء
لا أود سماعه لأننى مستغرق فى شىء آخر . فى أحد الأركان ،
تستكشف البهلوانة سرقعات السميريرو العتيقة والمرّتقة التى كان
عامل التلغراف السابق يستخدمها للشمس نهاراً ، وليلاً ، حين يطلع
القمر ، خوفاً من البثور التى يحدثها فى جلده ؛ وذلك على الرغم من سيره

دائماً ملتفّاً بدثاره ، شتاءً وصيفاً ، حتى داخل منزله . تظل البهلوانة تفك القبعات النسائية الممزقة واحدة واحدة . ومع كل خشخشة صدئة ، تنفتح المزق بين إنعكاسات الشموع كأزهار عباد الشمس الضخمة أو الفيكيتوريا التي بذرها المعلم كريستالدو في الجدول .

قتلته الرصاصات ؟ ، يسأل صاحب السيرك . تقول دونيا دولورس ، لا ، كان يعاني من هب داخلي . فيقول اللاعب بالنار مرّبّناً شاربه ، الذي يبدو الآن عن قرب وكأنه مستعار ، هذا لا يقتل أحداً . فتقول المداوية ، وما أدراك أنت .

من مواضع مختلفة تنبعث في وقت واحد نطف من تاريخ العجوز الذى ينظر إلينا نظرة ميت ساخرة . مرة أخرى ، إذن ، تحقق إرادة الكلمة معجزة لف حياة رجل سبع لفات ؛ قتله وبعثه مرات عديدة ، دون أن تهمة واحدة منها ، وهو يستمتع بموته دون عجلة ، مقلعاً في قارب بلا مقدمة ولا مؤخرة ولا مجاديف ، جاهز للإبحار الآن تحت التربة ، إلى أى مكان ، إلى أى زمان ، إلى يوم الحساب الأخير ، على الأقل ؛ لن نطلّ بجعبة خاوية .

في زمن آخر ، كان تشيبي بوليفار رجلاً آخر دون أن يكف عن كونه ذلك الموجود ، النائم لأول مرة نوم المباركين بعد عشرين عاماً من عدم النوم لبالليل ولا بالنهار بسبب الانقباض الدموى * . أذكر حينما بدأ مطر أيام الطوفان الأربعين . لم يكن ثمة إنذار سوى بخار من الماء المحترق يتكشف في البداية فوق الأرض الترابية على الجانب الآخر من التل . قبلها بأيام ، كانت حراشف الحسك قد انطوت مثل القبضات ؛

ثم أفلحت بذورها لتطير كالفيل الطيار. ثم أصبحت العلامات أكثر وضوحاً. أخذت طيور السنونو تحك الأرض أثناء طيرانها ، وقال تشيبي بنظرته الميتة ؛ انها تمضى بحثاً عن منبع المياه . وأخذت طيور الحجل تتمرغ في التراب مثل الدجاجات . لاحظنا أن الخفافيش لم تعد تخرج لتحوم عند الغروب . لكن أحداً لم يظن أن تلك الأشياء الصغيرة ستجلب كل تلك المياه . منذ جليد يونيو دام الجفاف ، وفجأة سارع المطر ليخمد تراب شهور عديدة . فخلال بضعة أيام تمزقت السماء الى نتف من الماء ؛ لم يكن يُرى سوى تلك الكتلة السائلة التى تتساقط فى كل الاتجاهات ، التى بدا أنها تعاود الصعود لتسقط بقوة أشد من إندفاع مسقط جوايرا . فاض النهر من مجراه ، وغمر البركة المغطاه بزهور الفيكاتور يا التى زرعها المعلم كريستالدو ، وبلغ أفاريز دور المنخفض . لكننا إستطعنا حتى فى شوارع القرية أن نخوض فى قوارب لننقذ الدجاجات والحشيات ، القدور والتوافه ، التى أودت على الأقل بحياة رجل جذبه المياه ؛ فلتقيم ماحدث ، لكن ساعة الكارثة يبدو أن كل شيء يكتسب قيمة أخرى وتوئم المرء فى لثته الأسنان التى فقدوها منذ زمن . أنت تقول لا ، لكن هكذا الأمر .

مصى تشيبي بوليقار فى صندوقه المنقوش والمعلم كريستالدو فى قاربه المنحوت مجدفان خلف مناخل الذرة المائية التى دخلت الأفنية أو تراكمت على جدران الطين النيىء وقرونها وبراغمها ميتة داخلها . أردت الاقتراب ، لكن المعلم أمرنى بأن أذهب لمساعدة من بالمنزل . مضى أبونا ومهمته انقاذ ديكة القتال التى يملكها . تركنى أذهب فى

قلب الفيضان بحثاً عن الغرقى ، كل أولئك الذين لم أحبهم في القرية ،
 والذين كانوا سيصبحون لى الآن بهجة انقاذهم موتى : القس أسنثيو ،
 والعمدة ، وخوانتشى ابن عمى ، والعجوز خوييانا ، عضوة أخوة وطريقة
 اللاهوتيين من الطبقة الثالثة ، التى كانت دائماً ماتصطادنى حين أضعده
 الى برج الأجراس لدقها . كنت سأجذبهم بعضا واحداً واحداً قائلاً لهم
 ما أضمره تجاههم . بعدها أنقذت كلبة ماريا دومينجا ، التى التجأت
 مع جرائها السبعة فى قش حظيرة بيتها . فأهدتنى ماريا دومينجا أحد
 الجراء ، الذى صار بعدها التشيمبو ، وأعطتنى قبة لأننى تصرفت ، كما
 قالت ، كرجل حقاً وفعلاً ، وتأملت غيتى اللتين ، حسب اعتقادها ،
 كانتا واسعتين جداً وتنظران بطريقة جميلة جداً . كذلك قالت لى أننى
 حين أكبر فسوف أروق النساء لأن لدى ذلك الشيء الذى تبحتن عنه
 فى الرجال . قلت فى نفسى ، ليكون ذلك بسرعة . كانت ماريا دومينجا
 تعرف كيف تكون متملقة ، ولم يكن ذلك يكلفها عناء ، حين تريد .
 بصرف النظر عن ذلك ، فقد أنقذت كلبتها وجرائها . وبعدها الزقزاق *
 الذى تملكه وحشية ، غسلت بهذه الطريقة من كل بقعها . واضح أن
 شيئاً من هذا لا يهم فيما أقول . المفارقة هى أنه للحديث عن شيء ،
 يتحدث المرء دائماً عن شيء آخر . وربما كان ما يهم هو ما بين الاثنين ،
 لكن من يدرى كيف يقوله ؛ هانحن نعرف أن أفضل الكلمات هى ما لم
 نُقل ، وإذا أصررتم لقلت أنه حتى الضوء أسود من الجهة العكسية ؛ لكن

Teruteru[†]: الزقزاق ، أبو الطيط ، طائر مائى جنوب أمريكى ذور يش أبيض وأسود . يتغذى

على البندان ويطيع فى جماعات م

من يطاوعه قلبه على ذلك ، من يطاوعه قلبه على أن يظل أبكماً دون أن يموت و يترك الكلمة للقرء ، مادمنا نعرف أن هذه الموزة ليست له .

كل شىء موجود وغير موجود ؛ المؤكد أن رخآت الأربعين يوماً قد انقطعت ؛ رأيناها تخف شيئاً فشيئاً ، وصارت مطراً رقيقاً ، أخذت القطرات تصغر تدريجياً ، وإثر مطر خفيف يكاد فى رفته يشبه سقوط الندى ، إرتسم قوس قرح فى سماء جديدة ومغسولة . وعلى البعد ، بين الأشجار القزمة بفعل الفيضان ، بدت القنطرة لعبة ؛ تلك القنطرة التى تكاد تمثل عظمة بؤسنا السوداء . إنظر ، هى الشىء الطيب الوحيد لدينا وهى بؤسنا . كانت من قبل تؤدى الى الطريق الحقيقى ، تشير الى قرى أخرى ، وترن بخطو العربات ، والناس ، والحيوانات . بعدها بدت وكأنها تستدير تجاه العدم ؛ انفصلت عن الطريق ؛ وبقيت فوق جدول من الماء أصبح راكداً وفوق ضفة رملية تغطيها الأعشاب ، لمجرد تذكرنا بزمان آخر كنا فيه ننتظر زمناً آخر أفضل من هذا ، لم يعد ليأتى ، أو أتى فعلاً ، أو سيأتى حين تنبت للديك أسنان . لكن دعنا من هذا أيضاً . اتفقنا . فلن أضجرك بشئوننا .

عام السيول ، حين عاد الطريق الحقيقى ينفث بخاره الملون مرة أخرى ، قدمت بضع عربات ضخمة ، مزينة بعديد من الزينات والأعلام ، وسط موسيقى نحاسية شديدة المرح . تقدمت مترنحة متكئة على سماء الغروب ، مثقلةً بحمولتها من العصى ، والصناديق ، والأقفاص من كل الأحجام . جاء رجال ونساء ملتفون باللون الأحمر القانى وهم يدورون على ساق واحدة فوق العربات و يعزفون كالمجانين الآلات

النحاسية . ومن آن لآخر ضجيج الوحوش التى بدا من بعيد أنها ترفع العربات فى الهواء . شعرت وكأننى قد فقدت وزنى فجأة ؛ نظرت الى تشيبي ، الذى لم يكن قد حرك رأسه واستمر ينقش صندوقه كأن شيئاً لم يحدث . بعدها قال : لم يجيء منذ عشرين عاماً . إذهب إلى منزلك وحاول منذ الآن إقناع أبيك بأن يعطيك دراهم الدخول ، لأن ماتراه قادماً هناك هو سيرك . كل كلمة بين دقات الإزميل ، مثلما يشعر المرء الآن فى فترات صمت المناقشات أنها مازالت ترن فى مكان ما .

لكن لأن البركة لا تلمع سوى فوق رؤوس القديسين ، فقد سقط بعدها بأيام قليلة الوباء الآخر ، الثورة . قال أبونا عندما رأى الجنود يهبطون من القطار بعتاد الحرب ، هاقذ بدأت مرة أخرى فوضى الطلقات . وقال ، جنود من مدينة إنكارناثيون ، على وجوههم سياء وجود متمردين . يأتون ليحتلوا القنطرة كالمعتاد ويخربوا بيوتنا . كان أبونا يستبق برؤيته الأحداث ؛ فقبل أن تسقط أولى أوراق الشجر كان يعرف أى ريح ستقطعها . نهض دون تعجل ، وانتزع من شجرة الجوافة سكين الجزارة ، وأخذ يستنها على المسن . أثناء الثورات كان يذبح الحيوانات للقوات الحكومية .

هبط الموالون بغته فى اليوم التالى ، واندلعت المعركة منذ الفجر فى شمس صابونية جعلت الضوء زلقاً . تجاذبت شلالات الأردية العسكرية دوامات الأوراق الجافة من جانب لآخر ؛ شد وجذب لقوتين متكافئتين لريحين متضادتين . شىء بديع إذا رؤى عن بعد : أذنان الطلقات تنسج خيوطاً من الفوسفور بين المواقع ، من جبل إلى جبل ، من سفح إلى

سفع ، ومن يوم لآخر؛ رغم أن عروض السيرك أكثر تسلية بالطبع ،
لكن الماء الآسن لا يطفىء الظمأ ، ولم يكن تدفق الجنود لينتهى في يوم
أو اثنين . عند صلاة الغروب ، كان إطلاق الرصاص يخف ؛ يجمع
الفريقان موتاهما و يدفنانهم ، في سويعات الليل . وخلال فترات
الصمت من الطلقات تلك ، كان يعود يُسمع عواء الوحوش لرائحة الدم
الطازج .

ولكى يزيد الطين بلة ، حمل شخص نبأ أن تشيبي بوليفار قد مات .
قال أبونا ، في ساعة طيبة ! وهاهو عامل التلغراف السابق في صندوقه ،
المنقوش بالإزميل والصبر خلال عشرين عاماً . لا يبالي بشيء . لكن
الحقيقة خضراء ومنذا يستطيع تخمين خلجات ميت .

يقول أبونا لصاحب السيرك ، أنظر ، ذلك الرجل كان يجب أن
يموت منذ حفنة من السنين . وتخيل أى لحظة إختار . إختار؟ ، تقول
المرأة ذات اللحية بسحنتها الأخرى النحيلة الجرداء . وتردد
دونيا دولورس المداوية المثل ، مالم الحياة من مستقر حتى القبر . الانسان
إذا نعس ، قد لا يقوم ، غمغمت خوبيانا منذ برهة ، وهى لا تكاد تُرى
لفرط شيخوختها . تردف سيلبيريا ثارثا * وهى تقدم الخمر في
الأكواب : مات عامل التلغراف لأنه كان يجب أن يموت ، لا أكثر .
ظل ينتظر موته وقتاً أطول مما يجب .

وهكذا ، طوال الليل ، تلك الحماقات والسخافات التى تقال أثناء
طقوس السهر على الموتى لبعث الدفء قليلاً في الميت الذى يستهل موته

الذى يبدو له في البداية ضيقاً بعض الشيء . ليس بالنسبة لتشيبى بوليشار ، الذى جربه غرزة غرزة خلال عشرين عاماً . كوريولانو المهرج يقول ، لحظة واحدة : فلم أعد أفهم شيئاً . متى مات عامل التلغراف ؟ الآن أو منذ عشرين عاماً ؟ يقول أبونا ، تلك الليلة ، بعد مهزلة الإعدام بالرصاص التى حاولوا بها إخافته ، وكادوا يقتلوه ضرباً . يقول صاحب السيرك ، لكن لماذا ؟ . فيسرد واحد بصوت خفيض : لأن الرب يكافئ الأشرار حين يكونوا أكثر من الأخيار . فيقول أبونا فى ضيق ، هاأنا أقول لك ، لأنه ظل يرفض إرسال الخبر الذى كان شرك الموت للثوار . فتضيف دونيا دولورس بيتشوفيو* ، كذلك لإنقاذ القرية من التدمير . إذن فذلك الرجل بطل ! ، يقول كوريولانو مجففاً عرقه بمنديل ضخم . فيقول أبونا ، محتمل ، لم يعرف أحد أبداً . محتمل كذلك أن يكون تشيبى بوليشار قد هز رأسه لمجرد الخوف . اذ كانت لديه تلك العاهة* حين يخيفه شيء بشدة ، يفقد الذاكرة ويفقد الصوت . بعدها لا يتذكر شيئاً ، وهكذا لم يستطع أن يحكى ما جرى فعلاً . ومرة أخرى يقول المهرج : لحظة واحدة ، إننى أنهض لأسقط . الإحساس بالخوف شيء ، لكن الإحساس بالخوف من الخوف يعود مرة أخرى ليصبح شجاعة . يقول أبونا ، لم يستطع أن يفعل خلاف ذلك . ثم يردف ، وهو يعود ليشرب الكوب الفارغ من جديد : اذا أعطوك بيضة* ، فهل تعتقد أنك مازلت

•• Bichofoe | الخلق القبيح — م

* darle el huevo : يمكن كذلك أن تعنى فى الأسبانية وضع المرء فى مأزق صعب . وكان يمكن ترجمتها بهذا المعنى لكن الاستعارة هنا تستمر حتى تنتهى بأنها بيضة الموت . هذا أحد الأمثلة العديدة على استخدامه للغة — م

تستطيع الاختيار؟ فيرد كور يولانو على الفور، نعم، يمكننى الاختيار بين أن أكلها أو لا أكلها. يقول أبونا، حسناً، رقد هو على البيضة عشرين عاماً. بيضة موته. أتعهننى. وهاك هو.

صمت ترقشه طلاقات قريية. يجاوبها زئير يعوى فى غابة بعيدة. ومن قال لكم أنه لم يميت تلك الليلة؟، قال المعلم كرىستالدو فجأة كمن يزفر أفكاره، ولم يكن أحد قد لاحظ حتى تلك اللحظة. تقول المرأة بلا حية، كيف؟ فيرد المعلم: كلنا، فى مرحلة ما من حياتنا، نموت دون أن نُدفن. نعم، يقولها بحقد أبونا، وحين يحاصروننا فى الداخل نتبرز من النافذة ومؤخرتنا الى الشارع. صرخت خوبيانا، زنادقه، حيوانات!، ولم يمكن معرفة ما إذا كانت تقول ذلك للوحوش، أولمن كانوا يقتتلون بالرصاص حتى فى الأحلام، أولمن كنا ساهرين على تشييبى بوليقار، ميتون من الضحك لدعاة أئينا، الذى ظل لا يحبه حتى بعد أن مات. المعلم كرىستالدو هو وحده الذى لم يضحك؛ ظل رجل قائم على حافته، من فرط نحافته وشفافيته. لا صندوق ولا قبر، فلن يحتاج حين يموت سوى علبة. إنه يشبهك!، إستغربت فجأة القزمة أمالبرجا مشيرة الى أنف تشييبى ومديرة نحو المعلم سحنها المتراكمة برمتها حول العينين، الغريبتى اللمعان. ومرة أخرى فتح الضحك أفواهنا. وبدأت خوبيانا فى الصلاة بشدة.

بين دورة وأخرى من الخمر والمسبحة، خطر للسيدة الضئيلة أمالبرجا أن تشرع فى جدل إكليل، يفوقها ارتفاعاً. أخذت اليدان المائلتان للسمنة، والأصابع ذات العقلة الواحدة تعمل بخفة لا تصدق.

لم يعد يرى سوى حفيف الزمردة الزجاجية في خاتمي النحاس الأصفر
الذين تضعهما في إبهاميهما. وبينما هي تجدل ، يخرج فارسها المحب
مالكولو ويعود محملاً بملء ذراعه من القش البري ، والفيجن* ،
والعناقية** .

ولكى يراوغوا النعاس ، والملل ، شرع الرجال يحكون وقائع
وحوادث ؛ تبهّدو من عالم آخر خلال أعشاش العنكبوت التي تخرج من
الأنفواه . هاهو أبونا قد أخبر الزوار بحكايته المفضلة : حكاية جدنا
باننشو ، الذي في ساعة موته سخر بقسوة من سلطات القرية . قال مثل
كل مرة ، جاء رئيس القرية والقاضي ، وجلس كلٌ منها على أحد
جانبي المحتضر . لم ينبس هو ببنت شفه ، ولما تأخر الوقت ، خاطبه
القاضي قائلاً أنها موجودان كلاهما في انتظار أوامره . فقال المحتضر ،
أشكركما . لقد أتعبتكما لأنني أود أن أموت كما مات سيدنا المسيح :
بين لصّين . ولم يتح لهما وقتاً حتى للاحتجاج .

حين لم يعد ذراعاهما ولا قدماهما يطولان ، صعدت القزمة فوق
الكرسي ؛ طوّحت الإكليل وجلست بداخله على الأرض من جديد ،
كسيدة لتواصل رقص اليمين . الفارس مالكولو يدخل ويخرج ، يجري ،
ويطير كخفاش ، ينحشر في كل الأركان حاملاً المهملات التي يجدها :
ذوائب دثار ، خرق ، ريش ، أعشاب جافة ، عظام سمك ، أكوام من
سدادات البيرة ، كما لو كات يود أن يثبت لنفسه أن الحياة رغبة والموت

* نبتة طبية عطرية ذات أوراق مُرّة — تسمى كذلك : السذاب — م

** العناقية : نبتة متسلقة — م

مضايقة . يقول أبونا ، أعتقد أننا جميعاً سننتهى برؤوسنا في الإكليل . في أحد الأركان ، تقصص ماريا دومينجا على المروض رحلات حجّها إلى الأماكن المقدسة . خلف مقعديهما ، ومن بين الرأسين اللتين تحملان شعراً نساءً ، أسود في الأولى ، وأشقر في الثانية ، أرى أمالبرجا منهمكة ومالكولمو يخطو في الهواء ، والإثنان بالغاً الجمال ، جهاً لم يكبر ، بالغاً الضلالة في اتساع شاسع تقلّصه المسافة التي تبدو أمام عينيّ شبه المغمضتين . بعد ذلك فقط أشرع في العمل ، تقول ماريا دومينجا ذلك بإبتسامة ، مائلة برأسها السوداء على اللبدة الشقراء التي تفوح برائحة أسد . وتلك هي اللحظة التي يتعرّفيها مالكولمو ، في إحدى دوراته ، ويُسقط قنديلاً فوق الإكليل ، الذي يبدأ في الطقطقة . تشب دائرة من اللهب حول أمالبرجا ، ويملاً الدار دخان يفوح برائحة شياطين أشياء قديمة وحيوانات ميتة يجعل الجميع يسعلون و يدمعون من الضحك . وكذلك الميت في الصندوق يسعل و يتلوى من الضحك . لا يفلت من ذلك أحد . يمد مالكولمو يده إلى سيدته التي تقفز فوق إكليل اللهب قفزة بالغة الرشاقة ، مثلما في السيرك ، وتسقط فوق ساقى أبينا ؛ هش ! ، يقول هو ذلك ويجذبها من حزامها كأنها خنفسة من مرتبة أخط من مرتبة البشر . يطفئ آكل النار الإكليل بتلويحة من معطف المطر الملئ بالرقع . كان البريق من الحيوية بحيث لم ننتبه إلى أن الفجر بدأ ينبج . بعدها خرجنا نحمل الصندوق الذي كأنه من حديد ، والذي يريد أن يغوص بنا في كل خطوة .

قال عريّف إحدى التعزيزات ، لا يمكنكم المرور ، فالجبانة في منطقة القتال . ضعوا الميت هناك مؤقتاً ، حتى ننتهى من هذا الأمر .

ظللنا خلال فترة ندور بالصندوق عبر الحقول المنداه بالصقيع ؛ ثم ،
عائدين عبر شوارع القرية التى بدت من زجاج . لم نكن كثيرين ؛ من
الرجال ، مايكفى بالكاد لحمل ذلك الصندوق الذى لا ينتهى وكأنه
تذكار . كان لاعبو السيرك قد ذهبوا ليناموا . وفى بخار الشروق ،
الحامض بطعم البارود ودخان الإقتتال لأيام ثلاثة ، نتقدم نحو أى
مكان . وفوق الصندوق ، كان الإكليل المتفحم يلمع فى الضباب
ببريق فاكهة طازجة . أشار شخص إلى اسطبل البلدية ، خلف
الكنيسة . وبينما ترن الطلقات فوق الطين النىء الصلد ، كنا هناك
نمزج صوف أنفاسنا ، مطلقين الصلوات بقوة كالرصاصات حتى نجد
ما نتدثر به .

كنا مشغولين بذلك ، حين اشتعل فجأة برق أصفر وأزرق عند حافة
التل . وتلاه آخر ثم آخر . انفجرت الرعود ثقيلة فوق الوادى . اعتقدنا أن
الطوفان سيعاود السقوط . لكن اتضح بعدها أنه دوى المدافع الرشاشة
والبنادق التى اندلعت من كل جانب . كان هو الصباح الذى قصفت
فيه بطاريات الحكومة القنطرة وشرطتها عند المنتصف . وفى نفس ذلك
اليوم إحتل الموالون القرية . وقدم السيرك عرضين أو ثلاثة للجنود ، ثم
أُمر بالانتقال الى مكان آخر بأناسه وحيواناته . كل شىء مثلما كان فى
البداية ، بينما تتملكنا الرغبة فى أن يبدأ من جديد .



رقم الايداع / ١٧١١ / ٨٧

٢

١١٧١٧٨ / ١٧١٧٨